

الباب الثاني

في الجسم الانساني



خدعوك فقالوا :

إن الإنسان مخلوق كامل !

ليس أبعد من جسم الكائن البشرى عن الكمال . .
 فى كل عام يموت ألوف من الأجنة فى بطون أمهاتهم ، ويموت
 ألوف من الأطفال فى المهد ، لأن قوانين النور ليست بلا أخطاء . . .
 ادخل أى متحف من متاحف الطب تجد مئات من هذه الأخطاء
 على شكل مسوخ لم يستقم تكوينها مع الحياة .
 وادخل أى غرفة للتشريح تجد أعضاء موضوعة فى غير موضعها ،
 أو زوائد فى جسم ما لا يوجد لها أشباه فى سواه .
 بل افتح عينيك وأنت سائر تصادف مئات من العيوب البدنية
 فى الطريق . . . هذا « أعلم » وهذا « أشرم » ، وهذا له أصبع سادسة
 فى يده أو قدمه ، وكلها هى وأمثاها أخطاء فى التكوين .
 وليست ظاهرة التوائم إلا خطأ من هذه الأخطاء ، فإن القانون العام
 أن تبيض الأنثى فى كل شهر من شهر خصبها بيضة واحدة ، يلحقها
 حيوان منوى واحد ، فيكون إنساناً ، فإذا باضت الأنثى أكثر من
 بويضة ، ومنيت كلها بالإخصاب ، انتهت كل بويضة إلى جنين .

وإذا باضت بويضة واحدة أخصبها أكثر من حيوان منوى واحد ، كانت النتيجة التوائم الأشباه . . .

وتحت هذا الخطأ العام قد توجه أخطاء جزئية ، فإن التوأمين بدلا من أن يولدا منفصلين ، يولدان وبينهما وشيجة من اللحم والدم ، والاشترار في بعض الأنسجة أو الأحشاء . . .

وقد يذهب هذا الخطأ إلى آخر مداه فيولد أحداً التوأمين حياً ، يحمل في عضو من أعضائه قبرا يثوى فيه رفات أخيه ! . . . وثمة أمثلة عديدة لمثل هؤلاء التوائم يكتشفها الطبيب على شكل أورام في جسم التوأم الحى تسمى أورام « التيراتوما » وقد تستحيل هذه الأورام إلى سرطان من أخبث أنواع السرطان ينتقم فيها قابيل الميت من هابيل الحى ، لحرمانه إياه من الحياة . . .

وكثيراً ما تستأصل هذه الأورام دفعا لشرها فتوجد فيها عجائب ، فمن أظافر بشرية ، إلى أصابع ، إلى يد كاملة ، إلى فك وفى الأسنان إلى خصلة من الشعر ، إلى عظمة من هنا أو هناك ، إلى قلب لم يعرف الحفقان ، إلى عضو كامل من أعضاء جسم الإنسان ! ! . . .

وما أكثر النكت التى يسخر فيها الخالق من حقارة المخلوق ! ! . . .



خدعوك فقالوا :

إن الإنسان تحدر من أصلاب القرد

إن تشارلس داروين - الوالد الروحي لعلم أصل الأنواع - لم يقل قط « إن أصل الإنسان قرد » ، ولكن خصومه - وكانوا في وقته كثيرين - هم الذين وجهوا إليه هذا الاتهام جهلاً بتعاليمه ونكايته فيه . وكان أشد خصوم داروين بحاجة في خصومته واحداً من كبار رجال الإكليروس في زمنه هو المطران ويلبرفورس ، وكان خطيباً لا يشق له غبار وإن كانت فصاحته كما وصفها أحد معاصريه ، من نوع فصاحة الطبل الأجوف ، القليل الحدودى والعالى الطنين . انهر هذا المطران فرصة اجتماع أقامته الجمعية البريطانية سنة ١٨٦٠ فى أكسفورد لتستمع لمحاضرة عالم أمريكى عن « التطور العقلى لأوربا على ضوء نظرية داروين » ، فاختار أن يجعل هذا الاجتماع ميداناً لمعركته الكبرى مع هذه النظرية ومن كسبت من أنصار .

وظهر منذ البداية أن المستمعين السبعمائة الذين اكتظوا فى قاعة الاجتماع ، ومن بينهم رهط كبير من رجال الإكليروس ، وعدد طيب من الطلاب ومن نساء المجتمع ، إنما جاءوا للاستماع للمطران وللإشتراك فى تشييع جنازة داروين ، الذى وعد المطران أن « يبحث

نظريته من جذورها ، وأن يمحو اسمه من قائمة الوجود . ولم يكن داروين نفسه موجوداً ، فقد كان رجلاً معتل الصحة على الدوام « برغم أنه عاش ٧٤ سنة ، من ١٨٠٨ إلى ١٨٨٢ » ، وكان يعاف المجتمعات إلا أن صديقه وزميله وتلميذه الدكتور هكسلي كان هناك .

وبعد نصف ساعة من الكلام الفصيح والمغازلات المتبادلة بين جمهور المستمعين والمطران الخطيب ، الذي كان يجلسه على المنصة بين الضيف الأمريكي وبين رئيس الاجتماع اختتم المطران هجومه قائلاً في نغمة هادئة ، وابتسامة ساخرة : « إن نظرية التطور نظرية لا أصل لها ولا أساس ، فالصقر لم يكن إلا صقراً منذ خلق ، والحمامة لم تكن إلا حمامة منذ بدأ الله الأكيوان » .

ثم التفت إلى هكسلي قائلاً وفي عينيه نظرة زاخرة بالتهكم ، وبين شفثيه ابتسامة كبيرة مصطبغة بلذع الشياط : « لكم كنت أود أن أعرف منك ياسيدى لأى جدّيك أنت مدين بأصلك الذى تقول إنه من أصلاب القرد .. » فأجاب هكسلي : « إن النظرية التى يشير إليها المتكلم تدور حول مهبط الإنسان والقرد من أصل مشترك ، خلال آلاف الأجيال . ومع ذلك فما دام السؤال الموجه إلى عاطفياً ، وليس بحاجة إلى البحث العلمى الهادى الرزين ، فليسمح لى السائل أن أقول : إني لو خيرت بين القرد ذلك الحيوان الطيب ، المسكين المهرج ، القليل الذكاء ، وبين الإنسان حين يؤتى حظاً عظيماً من المقدرة والمواهب ، وبالجلال السامى على كل جلال ، فيأبى إلا أن يستغل ذلك كله فى تحقير الباحثين عن الحقيقة - لو خيرت بينهما أيهما أختار ليكون

جدى ، لترددت طويلاً جداً في أى الاثنين أختار !

ويقول هكسلى بعد ذلك فى مذكراته إن النظرية الجديدة لم تتحطم يومئذ تحت ستابك السخرية اللاذعة ، ولكن قدر لها أن تجد من يستمع لها ، وأن ينتشر صداها فى الآفاق ومن الغريب أن أحداً ما من علماء التطور لم يقل قط إن الإنسان تحدر من أصلاب القروء . وداروين نفسه يقول بصريح العبارة فى كتابه « مهبط الإنسان » إننا لا ينبغي أن نقع فى خطأ الافتراض بأن الأصل الذى نشأ منه الإنسان يشبه فى كثير أو قليل أياً من النسانيس أو القروء التى تعيش الآن وغاية ما يقوله داروين ويتفق فيه مع سواه من علماء أصل الأنواع أن القروء العليا والإنسان تحدرت من أصل واحد . لم يعرف بالتأكيد حتى الآن . ولا بد أن يكون هذا الأصل مرتبطاً بالطين الذى هو أصل كل الأحياء .

ولقد خلص داروين فى كتابه « مهبط الإنسان » إلى أن الإنسان ليس مديناً بسموه على سائر الحيوان . إلى خاصية واحدة من خصائصه ، أو سجية من سجاياءه ، وإنما الفضل فى ذلك لعدد كبير من هذه الخصائص والسجاياء . منها اعتدال القامة ، ومنها اليدان ومرأتهما الباهر على العمل الدقيق ، ومنها عقله الذى يسهل له اكتشاف الآلات واللغات . ولقد عدّ داروين عقل الإنسان أثراً من آثار تكيفه للبيئة ، وسلاحاً من أسلحة النضال الذى تحتم عليه أن يخوضه فى معركة البقاء .

وعزا داروين الاختيار الجنسى على تطاول الأحقاب إلى أن المرأة أصبحت أحن من الرجل ، وأكثر مودة ، وأشد إيثارة ، وأن الرجل أصبح أشجع منها وأقوى ، وأصل ذكاء .

خدعوك فقالوا :

إن العقل السليم في الجسم السليم

ليس العقل السليم دائماً في الجسم السليم . . . فقد يعتل الجسم أحياناً ، ويظل العقل يتألق تألق النجوم . . . وقد يعتل العقل أحياناً ، وترى جسم صاحبه أقوى وأصلب من أجسام البغال .

وفي التاريخ أمثلة عديدة لمئات من أصحاب العلل والآفات البدنية ، قرروا أن يقهروا متاعبهم ، وقهروها فعلاً ، وقاموا بأعمال مجيدة في الفن والعلم وخدمة البشر . . . ولعل كثيراً منهم ، كانت العلة الكامنة في أجسادهم ، وشعورهم بها ، هي حافظهم إلى المجد ، ومهمازهم إلى قهر المتاعب واقتحام المعالي بشجاعة وإقدام . . .

وفي هذا التاريخ كذلك أفراد يعدون بالملايين سلمت أجسامهم من الأمراض والآفات ، وامتلات رؤوسهم هواء . . .

ديون الأثام

إن المرض البدني قد يؤدي حقيقة إلى اختلال ميزان العقل ، ويكفي أن تراقب مصدوعاً في معاملته للناس ، أو معوداً في بغضه للحياة ، حتى تلمس مدى تأثير العلل البدنية في الاتزان العقلي والانسجام مع الحياة .

بيد أن العكس غير صحيح على الدوام ، فالجسم السليم لا يمكن بأى حال أن يكون ضمناً كاملاً لعقل سليم ، وكثيراً ما تحطمت عقول وانهارت أعصاب ، دون أن تصحب هذا الانهيار أية علامة من علامات المرض البدنى الخطير . . .

وأكثر من نصف مرضى كل طبيب ، ممن يعانون أمراض القلب والكبد والمعدة والأمعاء - وبالأحرى من يخيل لهم ذلك - ليس فى قلوبهم ولا فى معدائهم ولا أمعائهم شىء ، وإنما تنوى عليهم فى العقل والأعصاب... إنهم ضحايا اختلال عاطفى نشأ من صدمات المتاعب والهموم والخوف والحقد والندم ، ومركبات النقص والذوان ، والضماير المثقلة بديون الآثام !

وقد عرفت علل العقول منذ وجدت البشرية . . . ومثل سائر العلل البدنية . اتهمت فى إلهائها الشياطين التى تسكن الجسم الآدمى ، وتعشش فى رأس المريض . .

قابل للكسر

وكانت وسيلة البشر الوحيدة لطرد هؤلاء الشياطين هى الرقى والتعاويذ ، وثقب الجمجمة حتى يخرج منها الشيطان ، وإغراق المريض بالمليينات والمقيثات لعل الشيطان ينزاح من جسمه مع فضول التوى والإسهال ! ولكننا الآن نعرف أسباباً أخرى لعل العقل منها الوراثة المسكينة ، والأضرار التى تصيب مخ الجنين قبل ولادته وفى أثناء الولادة ، وبعد

أن يتعرض للحوادث وأمراض الجهاز العصبي في الحياة .
 إن الوراثة تلعب دوراً في إضعاف العقول ، ولكنه يبدو دوراً
 أضعف مما يظن الناس فإن كثيراً من المجانين لا يوجد في أسلافهم مجنون ،
 وكثيراً من أصحاب العقول الراجحة ينحدرون من أصلاب مجانين
 رسميين . . وقد يرث المرء من أسلافه جهازاً عصبياً من نوع « قابل
 للكسر ! » ولكنه لا ينكسر . لأن صاحبه عاش في هدوء نفسي ،
 لم تحدث له كوارث تعرض للكسر هذا الجهاز ! . .

العقل الضريع

وأكثر من الدور الذي تلعبه الوراثة في الضعف العقلي ، الدور
 الذي تلعبه الحوادث الطارئة والولادة بالآلات ، ومن أجل ذلك يقوم
 الآن بعض أنصار الولادة الطبيعية من أطباء النساء بدعوة واسعة النطاق
 للعودة إلى الولادة الطبيعية ، والتمهيد لها ببعث الثقة في نفس الأم ،
 وحمايتها من المخاوف التي ييذرهما في تربية نفسها العجائز والجيران ،
 وبذلك يقل استعمال الآلات في الولادة ، ويقل معه الإضرار بمنح
 الجنين المولود .

وأكثر حالات الضعف العقلي مرجعها إلى البيئة وأثر التربية
 الأولى في حياة الطفل ، وتنشئته في جو تعس يقتل شخصيته ، ويهدم
 استقلاله . ويتدخل الانسجام بينه وبين أهله وجيرانه ومواطنيه ،
 ثم الصدمات العصبية العنيفة التي تصادف هذه الشخصيات المنهارة ،

فتركع أمامها ركوع الذعر والضعف واليأس والهوان . .
 وأيضاً كان مصدر هذا الضعف العقلي ، فكثيراً ما يحدث – وبالأخص
 في بداية الضعف – أن يكون هذا العقل الضعير في جسم سليم تماماً
 وربما صلح للعمل في مصارعة الثيران . .
 فالعقل السليم إذن لا يوجد دائماً في الجسم السليم !



خدعوك فقالوا :

إن العبقرية لا علاقة لها البتة بوزن الدماغ!

لم أكن ولدت يوم توفي الرسام العظيم « رافاييل » ، ولا يوم قضى نحبه الكاتب الفرنسي الكبير « أناتول فرانس » . وبالتالي فلإني لم أشارك في كتابة شهادة الوفاة لأى منهما ، كما لم أشارك بطبيعة الحال في تشريح جثتيهما ، وعلى ذلك فما أتيت لي أية فرصة لوزن دماغ أى منهما حينما مات . ولا أستطيع تبعاً لذلك أن أجيب بمنتهى الثقة عن سؤال لمواطن يقول فيه : « هل صحيح أن رافاييل الرسام وأناتول فرانس لم يكن وزن دماغ كل منهما يزيد على الكيلو جرام الواحد ؟ وأن العبقرية لا علاقة ألبتة بوزن الدماغ ؟ »

النادر لا حكم له

لعل مما يشبع تطلع المواطن السائل في هذا الصدد ما قرأته في كتاب للدكتور الفاضل محمد صبحى غنيمه بعنوان « نظرة في أعماق الإنسان » وفي مراجع أخرى ، من أن وزن دماغ رفاييل يوم مات كان ١١٦١ جراماً ، وأن وزن دماغ أناتول فرانس كان ١١٧٠ ، ولكن هل ينهض ذلك دليلاً على أن العبقرية لا علاقة لها بوزن الدماغ ؟

كلا بالتأكيد !!

فإن هاتين الحالتين من الحالات النادرة ، والنادر لا حكم له .
والأكثر شيوعاً أن أدمغة العباقرة تميل إلى الضخامة على الدوام .
ففي الوقت الذي يزن فيه دماغ الرجل البالغ في المتوسط ١٤٥٠ جراماً ،
نجد أن الروائي الروسي الأشهر إيفان تورجنيف مثلاً كان وزن دماغه
٢٠١٢ جراماً - والعهددة على نفس المراجع - وأن بسمارك السياسي
الألماني الداهية في القرن التاسع عشر كان دماغه يزن ١٨٠٧ جرامات ..
وأن وزن دماغ الفيلسوف الفرنسي « كانت » كان ١٦٠٠ جرام ،
وأن الشاعر الألماني شيلدر كان دماغه يزن ١٥٨٠ . وهي أوزان
تفوق كلها متوسط وزن الدماغ في سواد الناس .

ثم إن من المعروف أن الدماغ الذي يقل وزنه عن الكيلو جرام
الواحد ، لا يوجد عادة إلا في المعاتية والبلهاء وضعاف العقول بوجه عام ! !

العبقرية ليست بالرطل

على أن حجم الدماغ في ذاته قد لا يغني شيئاً في حساب العبقرية
والنبوغ . وإلا كان الرجل أذكى من المرأة على الدوام ، لأن متوسط
وزن دماغه يزيد بعشرة في المائة على متوسط وزن دماغ المرأة « وسنرى
أن ذلك مرده إلى الفرق بين جسمي الاثنين » وهو استنتاج لا محل له
لأن كثيراً من النساء يذهبن بأزواجهن إلى البحر ويعدن بهن عطاشى
ظامئين !

إنما يتصل بالعبقرية أكثر من وزن الدماغ مسطح قشرته السنجابية

السراء ، المحتوية على الخلايا العصبية التي تتلقى ملايين الانبعاثات العصبية وترد عليها بما يترأى لها من ألوان الاستجابات .

ومن المعروف أن هذا المسطح الذي كان ينبغي أن يكون مساوياً لمسطح الجمجمة من الداخل ، أى حوالى ٨٠,٠٠٠ ثمانين ألف مليمتر مربع بالتقريب ، يزيد على ذلك ثلاثة أضعاف فيصل إلى ٢٢٠ ألف مليمتر مربع ، وذلك لنمو هذه القشرة الهامة داخل أنسجة الدماغ على شكل تلافيف وأخاديد وشقوق تعطى الدماغ شكله المعروف .

ثم إن سمك هذه القشرة نفسه يلعب دوراً هاماً من هذه الناحية . فإن القشرة إذا سمكت وغلظت زاد فيها عدد الخلايا العصبية المذكورة ، ذات الوظائف الحيوية الهامة ، وذات الأشكال المتعددة ، حتى ليصل هذا العدد أحياناً إلى عشرة آلاف مليون أو يزيد . ويخرج من هذه الخلايا محاور عصبية شبيهة بأسلاك التليفون تصلها بمحطات أخرى في الجهاز العصبي الفذ ، ثم بأنحاء الجسم كافة ، فتتلقى منها مختلف الانبعاثات والأحاسيس ، وتستجيب لها بطريقتها الخاصة ، المستمدة من الوراثة تارة ، ومن الخبرة والتجربة تارة أخرى ، وبين هذه الانبعاثات والاستجابات المعقدة تلمضي الحياة إما في سلام وإما بين زعازع وأعاصير . وللحس والمشاعر والنوم واليقظة والتبادل الغذائي وسائر وظائف الجسد ، كما للتفكير والإرادة والسلوك ، أجهزة مكونة من مجاميع معينة من هذه الخلايا ، يؤدي كل منها وظيفة بذاتها من وظائف الدماغ الحسية والعقلية والحركية والخلقية ، لا يتعداها إلى سواها مهما امتدت الحياة .

عوامل أخرى

يضاف إلى ذلك أن الفص الجبهي في المخ ، وهو أحدث أجزاء الدماغ شوقاً في الإنسان ، من المحتمل أن يكون فيه مثوى لكثير من المواهب العقلية المختلفة ، كالذاكرة والمعرفة وقوة الاستنباط .

ثم إن نسبة ما يختص من الدماغ بهذه الوظائف العليا بالنسبة لما يختص بالوظائف الحيوانية الدنيا ، هي كذلك ثقل من الأثقال في ميزان العبقرية والنبوغ .

هذا إلى أن نسبة وزن الدماغ إلى وزن الجسم كله لها أهمية قصوى في تحديد نصيب الإنسان من العبقرية أو الذكاء ، بل لعلها أكثر أهمية من الوزن المطلق للدماغ .

إن هذه النسبة في الإنسان تدل على أن الكيلو جرام الواحد من وزن المخ يخدم حوالى خمسين كيلو جراماً من الجسد ، في حين أن الأرقام المماثلة في الشمبانزى والغوريلا تصل إلى ١٥٠ و ٥٠٠ بالترتيب . ويخدم الكيلو جرام الواحد من وزن الدماغ في الفيل « وهو وزن ستة كيلوجرامات » ٥٠٠ كيلو من وزن الفيل .

والحالة أسوأ من الخوت حيث يجب على كل كيلو جرام من الدماغ أن يعنى بحوالى أحد عشر طنّاً من وزن هذا الحيوان .

نحن أذكى خلق الله

فنحن إذن أذكى خلق الله ولا فخر ، وإن كان المظنون أن

الدرفيل قد يضارعنا من حيث هذه النسبة . بين وزن الجسم ووزن الدماغ .

فمن الدرافيل — كما يقول أزيموف عالم البيولوجيا الشهير — مالا يزيد وزنه على وزن الإنسان ، في حين أن دماغه أثقل وأضخم من دماغ الإنسان ، وإن كان من غير المعروف ما إذا كان حظه من المراكز ذات الوظائف العليا . مثل حظ الإنسان ، أو أن هذه الضخامة ، كضخامة الحمير ، ينصرف أكثرها إلى الوظائف السفلى للحيوان .

الكلمة الأخيرة في الموضوع

وليسمح لي المواطن السائل أن أردد له في النهاية ما يقول أزيموف هذا :

« إن ثقل الدماغ وحده ، وإن كان آية من آيات الذكاء ، ليس الكلمة الأخيرة في هذا الموضوع » .



خدعوك فقالوا :

إنه ليس لك إلا خمس حواس

كتب أحد الأدباء في جريدة الأخبار عن الحاسة السادسة لدى المرأة ، فقال إنها هاتف أو إلهام يدفعها إلى القيام بعمل غير متوقع ، ثم تبين بعد ذلك أن هذا العمل كان هاماً وضرورياً ، وأو أنه تم بغير قصد أو تخطيط ؛ وقال إنها حاسة يتمتع بها كل النساء ، وإن الملهمين فيها قلة بين الرجال .

ووصف هذه الحاسة بالسادسة فيه تجاوز كبير ، فالكائن البشري يملك على الأقل خمس عشرة حاسة ، وليس فقط خمس حواس . نعم إن الحواس الخمس هي السمع والبصر والشم والذوق واللمس ، واضحة لصاحبها تمام الوضوح ، لأن لكل منها عضواً خاصاً بها ، ولا يستطيع أن ينساها أو ينسى وظائفها ، وهو يتبين عن طريقها الأشياء .

ولقد عرف أرسطو هذه الحواس الخمس ، ولعله تلقى هذه المعرفة عن قدامى المصريين ، وظلت الحواس الخمس عندئذ تتردد على أقلام الكتاب والسنة الشعراء كجزء من تركة الأفكار والعقائد والمفاهيم التي يتوارثها جيل عن جيل ، وإن كان الواقع أن المرء لا يملك خمس حواس فقط ، وأن حواسه أكثر من ذلك . وليس ما سأذكره منها في هذا المقال إلا طائفة بعينها من هذه الحواس :

عبقرية الخلق

ففي الجلد غير حاسة اللمس ثلاث حواس أخرى معروفة لكل منا وهي حواس البرودة والسخونة ، ثم الضغط ، والألم الظاهر . وبرغم أن هذه الحواس موجودة كلها في الجلد مثل حاسة اللمس تماماً ، فإن لكل منها مستقرّاً في الجلد غير مستقر اللمس . ويستطيع العارف بوظائف الأعضاء ، أن يرسم خريطة على الجلد لهذه الحواس التي تنقسم الجلد ، وإن كان لكل منها موقع خاص بها . . . وهنا تبدو عبقرية الخلق ، التي توزع في هذا الجزء المحدود مائتي ألف جهاز استقبال للحرارة والبرودة ، ونصف مليون جهاز استقبال لللمس والضغط ، وثلاثة ملايين جهاز استقبال للألم تشعرنا بملايين المؤذيات التي تحيط بنا في البيئة حيث نعمل وحيث نعيش .

الثقل التقريبي للأشياء

وهناك الحاسة العضلية التي نستطيع بها تقدير الوزن التقريبي للأشياء ، ولكي ندرك حقيقة هذه الحاسة نتصور ساعة موضوعة على نضد بجوار سرير نضطجع فيه . . . فلو وضعنا يدنا على هذه الساعة لأحسنا وجودها باللمس ، كما نحس وجودها بالعين ، وكما نحس بأذاننا الصوت الرتيب لدقاتها التي تتحيف ببطء أعمارنا وعمر الزمان ، ولقد نحس الساعة باردة بالقياس إلى جلدنا الدافئ ونحن مضطجعون

فى السرير تحت اللحاف . . فإذا رفعنا الساعة بيدنا من فوق النضد استطعنا بهذه الحركة أن نضيف إلى معارفنا السابقة عنها معرفة جديدة ، لم تكن تخطر لنا قبل هذه الحركة على بال ، وهى معرفة الثقل التقريبي لهذه الساعة . ومن المؤكد أن الحاسة التى أمدتنا بهذه المعرفة الجديدة لا علاقة لها باللمس ، وإلا أدركناها ونحن نلمس الساعة . . وإنما علاقتها بالعضلات ، وشعور المقاومة الذى نحسه لثقل الساعة فى عضلات الذراع .

نحن والوطواط

ثم هنالك حاسة الأبعاد التى يستطيع المرء بها وهو مغمض العينين أن يحكم على بعده أو قربه من الحواجز والجدران ، من غير أن يراها أو يلمسها ، وهى حاسة يشتد نموها فى العميان ، حتى ليمشى أحدهم فى المكان الذى يألفه بدون عكاز أو دليل ، وبدون أن يمد يديه إلى الأمام يتحسس بهما الطريق ، ولهذا نراه قبل أن يصطدم بحاجز أو جدار يتحول عنه ، مبتعداً عما يؤذيه إلى ما لا يؤذيه ، ولعل هذه الحاسة أو حاسة مشتقة منها هى التى تجعل كائناً كالوطواط ، يطير فى الكهوف المظلمة بسرعة البرق الخاطف لا يمس شيئاً ولا يصطدم بشيء ويسرى فى منحرجات الكهف سريان الصاروخ الموجه نحو هدف يبتغيه .

الساعة الخامسة إلا ربعاً

وفوق ذلك فإن لنا حاسة أخرى لتقدير الزمن ، وحسبى فى الإشارة

إليها أن أذكر هذا الفريق من الناس الذين تنمو فيهم هذه الحاسة نمواً ، خاصاً قياوى أحدهم إلى القراش وهو يضع نصب عينه أن يستيقظ فى ساعة معينة ، ليصلى الفجر حاضراً ، أو يلحق القطار ، أو يذهب إلى موعد هام فيستيقظ فى الوقت المحدد نفسه مهما طال به ساعات السهر ، ومهما بلغ استغراقه فى النوم ... إن حاسة تقدير الزمن موجودة بقدر أو آخر فى كل إنسان ، ولكن لهذا الفريق من الناس منها نصيب كبير ملحوظ .

أين نحن فى الفضاء

وفى عضلاتنا حاسة أخرى تشترك معها فيها أربطة المفاصل وكذلك العظام ، وهى حاسة « الموقع » أى الشعور بمكاننا من الوجود ، وهو الشعور الذى يستجيب للجهاز العصبى للأحاسيس الصادرة منه فيأمر العضلات أن تتخذ هذا الوضع أو ذاك ، ويلزم الحدود التى لا بد منها لتتزن أجسامنا فى الفضاء حين نقوم وحين نقعد وحين نجرى وحين نسير ، بل حين يتعب جنب فتنقلب على الجنب الآخر دون وعى منا ونحن نيام ، أو حين نرقص على حبل أو نمشى بين ماءين على فاصل بينهما من الأرض كالصراط .

حواس أخرى

وئمة حاسة الامتلاء وهى حاسة باطنة ، تنبعث من المثانة أو الأمعاء لتنبهنا أن هذه الأحشاء قد اكتظت بالفضول ، وأن أوإن تفرغها قد

آن . . . ومثلها من هذه الناحية حواس الشبع والجوع .

قلب الأم

تلك أربع عشرة حاسة ، وليست الحاسة « السادسة » المزعومة ،
وهي الهاتف الخفى الذى يأمرنا بشيء أو ينهانا عنه دون قصد أو تخطيط ،
فنتطيعه ، فيكون لنا فى طاعته خير كثير ، ليست هذه الحاسة إلا
الحاسة الخامسة عشرة بين هذه الحواس ، ولعل نصيب الأم من هذه
الحاسة فى كل ما يتعلق بسلامة أولادها هو أوفر الأنصباء . وإنى لأذكر
من هذه الناحية حادثاً وقع لى ذات ليلة وأنا شاب ، فقد طلبت عشائى
ثم دخلت الحمام ، وكان به موقد بترول كبير لتسخين الماء ، فتسممت
من أول أكسيد الكربون الذى ينشأ من نقص الأوكسجين بسبب احتراق
البتروال والفحم فى الأماكن المغلقة ، وأحسست فى رأسى بالدوار ،
وفى عضلاتى بالضعف والوهن ، وكانت آخر حركة قدوت عليها قبل
أن تدركنى غيبوبة التسمم ، أن أفتح محبس الهواء فى الموقد ، وكان
هذا لطف الله ، وكانت أمى - يرحمها الله - سيدة مسنة ، وسألت
عنى فقيل لها إننى عدت واستحممت وتعبثت وأويت إلى الفراش
ولكنها لم تقتنع وظلت تعيد السؤال وتتلقى الجواب نفسه ، فقامت بعد لآلى
تتوكأ على الجدران فى الظلام حتى أتت فراشى ، فلم تجدنى . . وكان
هاتفها الخفى أو حاستها الخامسة عشرة سبباً فى إنقاذى من الهلاك ،
وأنا ملق على أرض الحمام ثلاث ساعات تائهاً فى غيبوبة الاحتضار .

الأرقام الصغار

ليس مما يتفق مع الواقع إذن أن نتحدث عن حواسنا الخمس ،
فحواسنا أكثر من خمس ، وأكثر من عشر ، بل أكثر من الحواس الخمس
عشرة التي أشرنا إليها إشارات عابرة في هذا المقال . إن أجسامنا التي هي
آية من آيات الله في الخلق والإبداع لا تعرف مثل هذه الأرقام
الصغار !



خدهوك فقالوا : إنك تهرم في الستين

ليحس للهرم من الناحية العلمية سن معينة ، وللاشيخوخة في أعمار البشر ميقات محدد ، فبعض الناس يهرمون في الثلاثين ، أى في السن التى كان ينبغى أن يزدهر فيها الشباب ؛ وبعض الشيوخ يتألقون في السبعين والثمانين . إن الشيخوخة لا تقاس بعدد السنين التى قضيتها من عمرك ، ولكن بالقدر من الطاقة والقدرة على العمل المنتج ، والقابلية للاستمتاع بالحياة ، والتمكن من إفادة الناس . لقد يهن العظم في الشيخوخة حين تجيء ، ويتغضن الجلد ، ويشتل الرأس بالشيب ، إن كان بقى فيه من الشعر ما يمكن أن يشتعل ، وقد تمنى الذاكرة بشيء من الوهن ، وقد تبطئ سرعة النشاط ، وتقص الرؤية بالليل ، وتتخلخل قوة الملاحظة ، وكل ذلك نتيجة للتصلب التدريجى في الشرايين ونقص جريئة الدم التى تحملها للأنسجة والأحشاء . بيد أن هذه السمات كلها مرهونة برصيد الإنسان الوراثى من قوة البنية وصحة الشرايين ، والجردان نفسها في أقفاص التجارب ، تنجب من الذرية ما يبقى شبابه طويلا ، وما يشيخ في بواكير الشباب . ويعزز هذا الرصيد الوراثى من هذه الناحية نوع الحياة التى يحياها المرء ، وهل يحياها بحكمة ، أو هو يعربد فيها بالعرض والطول ؟ ثم نظامه الغذائى وعاداته فى الطعام ، ومقدار

نشاطه البدني والعقلي : وما يصاب به بحكم الظروف أو نتيجة التفريط والإهمال من أمراض وآفات ، والناس يختلفون أشد اختلاف في هذه الأرصدّة كافّة ، بعضهم دائن ، وبعضهم مدين ، وبعضهم يغرقه الدين همّاً بالليل ومذلة بالنهار . ولقد كان برنارد شو الكاتب الروائي يتألّأ بالصحة البدنية والعبقريّة الذهنية وهو فوق الثمانين . واستطاع تشرشل أن يقود بلاده إلى النصر في الحرب العالميّة الأخيرة وبعد هزيمتها الكبرى في دنكرك ، وهو فوق السبعين . وما هو ذا شارل ديغول رئيس جمهوريّة فرنسا السابق قد ملأ الدنيا وشغل الناس وهو في التاسعة والسبعين . وليس هؤلاء الساسة بدعاً من هذه الناحية ، ولا هم خوارق أو معجزات ، ففي محيط كل منا معمرّون انحنّت أكتافهم تحت وقر السنين ، ولا يزالون يعملون يجبروت الشباب الممتزج بخبرة الشيوخ ودرايتهم ومعارفهم : إن السن لم تكن قط معياراً للصحة والعافية والنشاط والقدرة على الإنتاج والمتعة بالحياة ، والذين سنّوا قوانين الإحالة إلى المعاش في سن الستين ، إنما استوحوا هذه القوانين من متوسطات الأعمار التي كانت سائدة في شعوبهم وقت إصدار هذه القوانين . في بلادنا مثلاً كان متوسط الأعمار حين صدر هذا القانون أقل من ثلاثين عاماً ، وكان من المعقول أن تصبح سن الستين بداية لسن العجز أو الوهن البدني أو العقلي لكثير من الناس ، فأما وقد بلغ هذا المتوسط في بلادنا اليوم ، وحسب إحصاء سنة ١٩٦٠ ، اثنين وخمسين عاماً ، بفضل الإصلاح الصحيّ الدائب والانتعاش الاقتصادي العام ، وبفضل العصر الطبي

الذى يجب أن نزهى بالحياة فيه ، والذى أولانا كثيراً من النعم في الطب والجراحة والتخدير والعقاقير الشافية لكثير من الأمراض التي كانت تمهد للعجز وتحترم الحياة ، والعقاقير والنظم الحيوية المؤجلة للشيخوخة ، والتي أصبحت اليوم موضوع علم مستقل خطير - أما والأمر كذلك فإن من الظلم أن نستمر على النظر إلى قدرة الإنسان وطاقاته في سن الستين بالعين التي كان ينظر بها أجدادنا إليها ، أى اعتبار أبناء الستين « كخيل الميرى العطلانة » التي لا يصلح لها إلا ضرب الرصاص !!

نعم إن ذلك قد يصح في بعض أصحاب المهن القاعدة التي لا يفارق أصحابها المكتب إلا إلى المقهى ، ولا يغادرون المقهى إلا إلى السرير ، وهي المهن التي توزن السنة فيها بستتين في موازين الصحة والعافية والكفاية البدنية والعقلية ، والتي تمتد طرقات سلطانيتها إلى الفناء التدريجي المبكر ، إذا لم يلتمس أصحابها لأنفسهم مجالاً للنشاط ، والرياضة البدنية ، يكافحون به غزوات الحمل والكسل والأنسجة والعضلات واستحالة الأغذية الفائضة عن حاجات الجسم إلى رواسب دهنية في بطائن الشرايين.. كما أنه قد يصح في بعض الصناعات الدقيقة التي تحتاج إلى قوة الملاحظة في عنفوانها ، وإلى مرونة حركة عضلات الأنامل على أقوى ما تكون ، وإلى اليقظة المرهفة في الحواس بصفة مستمرة ، وسن الستين وما فوقها قد لا تسخو على صاحبها بمثل هذا الترف في القوى والقدرات ، بيد أن من الثابت الآن في المهن الذهنية بالذات ، أن الذاكرة وإن

وهنت بعض الشيء في بدء الشيخوخة فإن احتفاظ المرء بقوى الفطنة والخلق والإدراك كما يتوقف على رصيده الوراثي مرهون كذلك ، بما اكتسبه من المران العقلي في مراحل حياته ، وما ادخر من ذخائر المعرفة والثقافة على طول السنين ، وليست الذاكرة من هذه الناحية بالرصيد الذي لا يمكن تعويضه ، ولا هي بالمستلزم الضروري الذي يحتاج إليه الشيوخ ، ولا سيما العلماء ؛ وكلنا يعرف حكاية نيوتن والبيضة التي كان يضعها على أذنه ، والسبابة التي كان يقذف بها في الماء المغلي على النار ! !

لقد رأيت فوجاً من الشيوخ حشدتهم إحدى مقدمات البرامج في التليفزيون ، وكلهم من المحالين إلى المعاش . . أجلس جماعة منهم في الشمس كمتابلة السلطان ، يمصون أصابعهم ، ويعدّون الغربان في السماء ، ونظمت ثلة منهم في مقهى يقتلون الوقت الفارغ بالاستماع إلى قرعة حجارة الرد ، وهي « تضرب ، وتهرب ، وتملأ الحانات » ، ورصت فريقاً منهم تحت خميلة ظليلة ، أمرت سنة من نوم القيلولة أن تطوف بهم مصعدة بأحلام بلاهتهم البادية من شفاههم المدلاة ، إلى حيث تقف سفينة فينوس السوفيتية على سطح الزهرة في ملكوت السماوات ! ولست أدري في الواقع كيف اتفق للسيدة المذيعة أن تجمع على ميكروفونها كل هذا الحشد من العجائز المتعطلين ؟! لقد عرفت شيوخاً بالمعنى السيئ الحظ الذي توحى به هذه الكلمة في خواطرنا ، يعملون وهم في السبعين من أعمارهم ، في بعض المحافل الدولية الفنية ، ويعدّون

ففيها كالمصاييح الحادية و « الفرامل » التي تحول بين العاملين في هذه الأوساط وبين جموح الشباب . ولقد كان سيدني سميث الذي كان استاذاً للطب الشرعى في أوائل هذا القرن ، في جامعة القاهرة ، عميداً لكلية الطب في أدنبرة ثم مديراً لجامعتها ، وهو يخطو إلى السبعين .

ولقد حدث لى ذات مرة وأنا في بداية حياتى الطبية ، وكنت أعمل بقسم الأمراض في كلية طب القاهرة مع الأستاذ برنارد شو ، وهو ابن عم لبرنارد شو الكبير - وكان يقول لمن يسأله : هل يمت بالقراءة للكاتب المشهور ؟ إن هذا الكاتب هو الذى يمت لى بصلة القرابة ! . . . حدث أن كتبت في تقرير أصف فيه جثة سيدة متوفاة في الثالثة والأربعين من عمرها . إن الجسد جسد امرأة في وسط العمر ، فلم تكده عين الأستاذ تقع على هذا الوصف حتى انتفض كالذى لدغته عقرب ، وقال : إذا كنت تعدّ هذه المرأة - وهى في الخامسة والأربعين - متوسطة العمر ، فلا بد أنك تعدنى وأنا فوق الخمسين ، فى الغابرين ولم ينقذنى من لسانه الطويل - غفر الله له - إلا إثباتى له أن متوسط العمر عندنا يختلف تماماً عن متوسط العمر فى مسقط رأسه بإيرلندة حيث كان يقرب يومئذ من الستين ، وعرفت أستاذاً جامعياً مصرياً نصحه أطباؤه بسبب عاهة تخلفت عنده من جراحة فى المخ أن يهجر التدريس إلى آخر عمره ، وأن يتنحى عن كل نشاط اجتماعى فى الحياة ، ولكنه رفض النصيحة ، وقاوم وناضل ، وأخضع عاهته لألوان شتى من التأهيل ، وظل ولا يزال حتى السادسة والستين يمارس نشاطه ثلاثين سنة لم يلحظ عليه فيها أحد

شيئاً ، ولا حالت عاهته دون أى نشاط يطالب به أستاذ .

وقد شاء صاحب مصنع سيارات مشهورة فى أمريكا حين خلف أباه على هذا المصنع حوالى ١٩٤٩ ، وهو فى عتفوان الشباب ، شاء أن يحيل إلى الاستيداع كل من ساهم بالشيوخ الذين جاوزوا الستين من المهندسين ورؤساء الأقسام والعمال . فكانت النتيجة إخراج سيارة كنت أحد ضحاياها ولا فخر ! فقد كانت تسهلك من البنزين ماتسهلكه قاذفة قنابل ، وكانت تحرق الزيت كأنه حطب والعياذ بالله ، وكانت تمشى تهادى فى الطريق تثرثر وتنز كالنعش المفكك ، ولا يحلو لها أن تضرب عن المسير إلا عند إشارة المرور . . . ولقد اضطر الشاب الفيلسوف صاحب المصنع بعد هذا الدرس القاسى أن يعود إلى التعامل مع الشيوخ الذين أحالتهم رعونته إلى الاستيداع ، مضيفاً إلى فورة الشباب وحماسهم ملح الخبرة فى الشيخوخة والحكمة والنضج .

إن موضوع الشيخوخة فى النهاية موضوع كفاية وقدرة وعافية أكثر منه موضوع شهور وأعوام . والسن التى يهرم فيها الإنسان لا تحددها التقاويم ولا قوانين المعاشات ، ولكن تحددها الوراثة وممارسة النشاط البدنى والعقلى بانتظام ، والتماس هواية مفيدة قد تصبح لصاحبها فى الشيخوخة مجلبة رضا ومصدر رزق ومنبع شباب يحميه من الحياة فى المقاهى وتحت الحمايل كتنابلة السلطان ، وانتفاع بالغذاء الكافى التى تتوافر فيه كل العناصر الغذائية التى تحتاج إليها خلايا الأنسجة بدون إفراط ، والتوسط فى المتعة بملاذ الحياة ، واستعمال العقاقير الواقية من الشيخوخة التى ينصح

بها الطبيب ، والفحص الطبي الدورى مرة كل عام . . إنك تستطيع
بهذه الوسائل - ومعظمها ممكنة التحقيق - أن تتحدى الزمن فى شيخوختك ،
وتتحدى قاذون المعاشات ولا تكون كالعبيد الذين كلما كبروا قلت
قيمتهم فى السوق ولا كخيل الميرى العطلانة التى لا يصلح لها إلا ضرب
الرصاص !



خدعوك فقالوا :

إن قلبك في جانب صدرك الأيسر !

يقع قلبك « أو قل معظمه » وراء عظمة القص التي تتوسط الصدر ، هي وما يتصل بها من غضاريف الأضلاع ، ولكنك إذا سألت عدداً من الناس ، حتى المثقفين ، عن موضع القلب ، أشاروا لك توّاً إلى جانب الصدر الأيسر ، لا لشيء إلا لأنهم يحسون دقاته هناك .

إن القلب أشبه ما يكون بمخروط عضلي يتوسط الرئتين في قاعدته في الجانب الأيمن من الصدر ، وجرمه تحت القص ، ورأس المخروط في الجانب الأيسر . ويمثل هذا الرأس نهاية البطين الأيسر للقلب . وهو الوعاء الذي يتسلم الدم النقي من الرئتين ويدفعه بقوة إلى الشريان الأكبر في الجسم - الأبهـر - فيوزعه على سائر الأنسجة والأعضاء والأحشاء بعدالة عمر بن الخطاب . وفي كل دفعة من دفعات هذا الدم يحس المرء دقة من دقات قلبه إذا أنصت إليه ، ولا سيما إذا كان ينبض بعنف لأي سبب من الأسباب .

من ٢٥ إلى ١٠٠٠

إن دقات القلب تزداد وتشتد بالمجهود العضلي الشاق ، والانفعالات النفسية المفاجئة ، ودرجات الحرارة المرتفعة ، وفي أثناء هضم الطعام ،

وعند الفزع من موقف رهيب ، وبعد النزف ، وفي الصدمات العصبية ،
وفي مناوشات الغرام ، وعند تضرع الوجنات بحمرة الحجل ، وحين
ترى الحبيبة المخلصة جالسة مع شخص آخر على حجر في سفح الهرم
الكبير !

ويدق قلب الشخص البالغ في حالة الهدوء من ٧٠ إلى ٨٠ مرة
في الدقيقة ، أى أنه يدق أكثر من ١٠٠,٠٠٠ دقة في اليوم ، أو أكثر
من ٢٠٠٠ مليون مرة في عمر الشخص الذى يبلغ الستين ، وبدون عطلات
أو إجازات مستطيلة . وهو يدفع إلى الجسم في كل دقة حوالى نصف
فنجان شأى من الدم ، ويصل ما يرسله من الدم إلى الجسم خلال هذا
العمر إلى حوالى ٦٤ مليون جالون .

على أن دقات القلب تختلف بين مرحلة ومرحلة من العمر .

آه ياقلبي !

إن دقات القلب سبب من سببين رئيسيين جعلنا أكثر الناس
يعتقدون أن القلب في الجانب الأيسر من الصدر ، والسبب الثانى هو
ما ألفت الناس أن يسمعوه من أن الآلام الناشئة من اعتلال القلب
تكون في هذا الجانب من الصدر ، وهو باطل آخر من سلسلة الأباطيل
التي تتصل بتاريخ هذا العضو الحيوى العظيم . . فآلم القلب ليس
وفقاً على الجانب الأيسر من الصدر ، وإنما يكون أكثره تحت عظمة

القص وينتشر منها إلى اليمين أو الشمال إلى الذراعين ، أو إلى أسفل الصدر أو أعلاه .

ثم إنه ليس ألماً ككل الآلام التي تطعن كالخنجر ، أو تحز كالسمار ، أو تتشعب تشعب التيار الكهربى . . . إنه ألم ضاغط ، خائق ، ساحق ، كأنه حمل هائل يجثم على الصدر ، أو كأن الصدر تعتصره كلابتان . يضاف إلى ذلك أن هذا الألم يأتى عادة بعد القيام بمجهود ، ويذهب إذا ذهب المجهود . .

وقد يحدث هذا الألم نفسه من موت بضعة من عضلة القلب نتيجة للانسداد الكامل فى الشريان الذى يمدّها بالغذاء والأوكسجين ، وفى هذه الحالة لا يرتبط الألم بالمجهود ، وقد يقترن بالإغماء .

وليس كل ألم فى الجانب الأيسر من الصدر منشؤه القلب ، فإن الآلام فى هذه المنطقة كثيرة ، وبالأخص منها الألم الواخز والألم النشار ، فقد تكون هذه الآلام مما يسمى خطأ بروماتزم العضلات ، وقد يكون منشؤها من مفاصل العمود الفقرى فى العنق والظهر ، وقد تنشأ من القلق النفسانى الذى يختار هذه المنطقة بالذات ليحرب فيها ألامه استشارة للاهتمام .

العضو الأصيل

إن القلب هو أقوى عضلة من عضلات الجسم ، وأمله أطولها عمراً ، وأشدّها جلدأ على الحزن والأحداث ، وأكثرها ازدهاراً على الجهد

والنشاط والعمل الشاق . والقلب أشبه مايكون في عمله . بالآلة ، فإنه أقل الآلات حاجة إلى الراحة أو الإصلاح ، أو قطع الغيار ، هذا بطبيعة الحال إذا لم يضايقه مرض كالروماتزم المهمل الذى لا يعالجه صاحبه ولا يحاول توقيه ، برغم أنه مرض قابل للتبؤى والعلاج ، وما لم يعرقل عمله مرض كتصلب الشرايين .

صدأ السنين

إن تصلب الشرايين أقرب ما يكون إلى صدأ يرسب في بطانتها رسوب الطين في قنوات الرى ، ويضيق مجراها كضيق مجرى هذه القنوات بالأعشاب ، فيجعلها عرضة للانسداد .

وأهم أسباب هذا الصدأ ارتفاع ضغط الدم مع السن ، والسمنة المفرطة ، والتخمة ، وغنى الطعام بدهن الحيوان ، وقلة النشاط والرياضة ومرض السكر ، والإفراط فى التدخين ، والاضطرابات العاطفية المزمنة ، مضافاً إلى هذا كله ما يرثه المرء من استعداد لهذا الصدأ من الآباء والأجداد .

إن هؤلاء المتآمرين التسعة كثيراً ما يجتمعون معاً على القلب الشهيد فتسوء عقباه ، وكثيراً ما يجتمع بعضهم ويغيب بعض ، وكلما قل العدد قلت متاعب القلب ، وفى استطاعة كل إنسان أن يحول دون اشتراك أكثريتهم فى هذا التآمر على قلبه ، ولا سيما إذا طردهم بالعيش المنظم ، والتوسط ، والطعام المناسب ، والرياضة المعتدلة والابتسامة للحياة ،

والفحص الطبي الدورى ليعرف أى هؤلاء المؤتمرين قد استغفله ، واقتحم مكان الاجتماع .

إن عنتره بن شداد لو قام من قبره وضرب بسيفه البتار عدوًا من أعدائه فى منتصف الرأس ، ومنتصف عظمة القص ، فشطره رأسيًا ومن الأمام إلى الخلف إلى شطرين ، لوجدنا أن القلب قد انشطر هو الآخر إلى شطرين ، فكان نصفه إلا قليلا فى جانب الصدر الأيمن ، وكان نصفه - أو فوق ذلك قليلا - فى الجانب الأيسر . .

بيد أن عنتره لو فعل ذلك الآن ، لما ذهب الأمر دون مضاعفات ، فإن جبل المشنقة كفىل بأن يعيده إلى حيث كان ، وقد انشطر عنقه - بالعرض لا بالطول - على طبلية الإعدام ، وخير له أن يبقى حيث هو ، كافيا خيره شره ، متمتعاً بسمعته الحسنة على الأقل بين الأبطال والشجعان ! !



١٣

خدعوك فقالوا :

إن كل ألم في المفاصل روماتزم

كانت صلاة الجمعة في مسجد قروى ، وكان بجوارى شيخ متداع
كلما قام من ركعة أو سجدة سمعت مفاصله « تطلق » ، وسمعت
من فمه أصواتاً خافته تختلط فيها شعائر الصلاة بالأنين البادى والمكتوم
« يا ضهرى يا ضهرى . . يا كريم يارب ! » وسألته بعد أن انتهت الصلاة
عما به فقال : « المدعوق المورتوزم يا ابنى . . أبارك الله ! »
وكان يقصد الروماتزم بطبيعة الحال .

والذين يهتمون الروماتزم بكل ألم يصيبهم في المفاصل كثيرون ،
وهو اتهام ظالم قلما يصح إلا في أقل من خمس حالات في المائة من
حالات آلام المفاصل . فالروماتزم مرض من أمراض الطفولة والشباب
وهو مرض للقلب أكثر منه مرضاً للمفاصل ، فهو على ما يقال كلب عقور
يعض القلب بقسوة ويلعق المفاصل برفق ، ولا يكاد المريض يعالج من
الروماتزم حتى تعود المفاصل إلى حركتها الحرة كأحسن ما كانت عليه .
وقد يستطيع المريض بالروماتزم الحقيقي أن يتغلب على هذا المرض وأفاعيله
في المفاصل ، يتغلب المرض نفسه وأذاه ، إذا عالج علاجاً حاسماً كل
التهاب يصيب الزور .

فالروماتزم إذن لا يضرب المفاصل بعنف ، ولا يعيث فيها فساداً ،

وإنما تفعل ذلك أمراض أخرى ، تضرب المفصل بشدة ، وتدمر أغشيته الداخلية ، وتأكل غضاريفه ، وربما أكلت كذلك جزءاً من العظام .

شبيه الروماتزم

وعلى رأس هذه القائمة من الأمراض الالتهاب المفصلي شبيه الروماتزم ، وهو مجهول الأسباب حتى الآن ، ويصيب النساء أكثر من الرجال ، ويضرب عادة بين سن العشرين وسن الأربعين ، ويؤثر في المفاصل الصغرى بالأيدى والأقدام أكثر مما يؤثر في المفاصل الكبرى ، ويصحب الإصابة ضمور شديد في العضلات ، وتيبس في حركة المفاصل المصابة ، يفقدها القدرة على الحركة بالتدريج . .

ومن أهم ظواهر هذا الألم المفصلي أنه يزداد مع الراحة ، ويقل مع النشاط وقد تشوه اليد أو القدم فتصبح كالخلب إذا لم يعالج المريض . وقد يصبح المريض قعيد الدار . وعلى الرغم من تسمية المرض بأنه شبه روما تزمي فإنه لا يمت للروماتزم بأية صلة أو رباط .

الانحلال الشيخوخى

ومن أشهر أمراض هذه القائمة كذلك ، الانحلال المفصلي الشيخوخى أو ما يسمى بالالتهاب العظمى المفصلي وأكثر من يصاب به الكهول بين الأربعين والستين . وأكثر المفاصل استعداداً للإصابة به

هي المفاصل التي تحمل ثقل الجسد كمفاصل العنق والظهر والمقعدة والركبتين . وكذلك المفاصل التي تبجهد بالعمل « كالمفاصل النهائية في أصابع النساء » ، وهو المرض الذي تكثر فيه طقطقة المفاصل عند الحركة . نتيجة لتصادم عظام المفصل بعضها ببعض ، بعد أن أفنى المرض ما كان يكسوها من الوسائد الغضروفية ، التي تجعل تحرك عظام المفاصل بعضها فوق بعض أسلس ما يكون . ومن سمات هذا الألم أنه يزداد مع التعب ، وطول الوقفة ، ومشقة العمل ، ويزول أو يخف حين يستجم المريض .

القائمة طويلة . .

ومنها السل الذي يدمر هو كذلك غضاريف المفصل وعظامه ، ولا سيما في المفاصل الكبرى كالفخذ والركبتين . . فهو كاللص الذي يسرق الحمل وينصرف عن الدجاج ، إذ يختار مفصلاً كبيراً أو مفصلين فيتلفهما ، إذا لم يعالج ، ويضيع حركتهما ، ويؤدي إلى تقصير الساق المصابة ، وتثبيتها في وضع يغلب عليه التشويه .

وقد يؤدي بعض المفاصل الكبرى كذلك السيلان الذي لا يعالج . وقد قل هذا المضاعف من مضاعفات المرض الآن ، لأن الشباب أصبح أكثر وعياً لمزلق المراهقة من جانب ، ولأن مضادات الحياة الجرثومية « من الجانب الآخر » أصبحت سلاحاً فعالاً ضد هذا المرض السافل السخيف .

وفي قائمة هذه الأمراض المدمرة للمفاصل توجد بعض الأمراض الخبيثة « كالسرطان » وكثير من الأمراض الأخرى قليلة الحدوث .

ضلال حتى في الأسماء

على أنه بغض النظر عن آلام المفاصل الناشئة من الأمراض ذات القدرة على إتلافها ، فإن هناك سلسلة أخرى من آلام المفاصل يطلق عليها اسم مزدوج وهو الروماتزم العضلي ، وهي تسمية باطلة لأن أسباب هذه الآلام لا علاقة لها هي الأخرى بالروماتزم ، وهي ولو أنها في المفاصل إلا أن مركز الأذى فيها هو العضلات والأوتار المحيطة بالمفاصل . . وأسباب هذا الروماتزم العضلي المزعوم غير معروفة تماماً ولكن المعروف أن هناك ظروفاً خاصة نهيئ له الطريق .

بعض من كل . .

فالبرد والرطوبة إذا تعرض لهما مفصل بذاته ، دون الجسم كله ، فقد يحسن المرء المأ فيه . .

والتعب بعد الخلود إلى الراحة طويلاً قد يحدث في بعض المفاصل تيساً في الحركة مع بعض الآلام التي تزول في أيام .

ويحدث مثل ذلك في الصناعات التي تقتضي إرهاق العضلات في عمل شاق طويل . وأكثر ما تحدث هذه الآلام المفصلية حين تكون

العضلات مرهقة ثم تتعرض للبرد بعد الإرهاق .

والأذى الذى يصيب مفصلاً بعينه قد ينصب على بعض عضلات المفصل أو أوتارها فيؤدى إلى كثير من المضاعفات والآلام . ومن هذا النوع إصابات مفاصل الرياضيين ، ولا سيما لاعبي الكرة ، من ضربات الخطأ ، والتصادمات العمياء . والسمنة المفرطة قد تصحبها آلام فى مفاصل الغنق والظهر ، نتيجة لحمل أثقال من تلال الشحم ، أو للانزلاق الغضروفي فى مفاصل العمود الفقري ، وهو كثير الحدوث فى هذه الأحوال .

وفى بعض العدويات كالأنفلوانزا والتهاب اللوزتين و « حتى لو لم يضاعف هذا الأخير بالروماتزم » كثيراً ما يقترن ، المرض بآلام فى المفاصل منشؤها العضلات . بل إن القلق النفساني والصراع العاطفي قد يؤدى حياناً إلى مثل هذه الآلام . وفى كل هذه الأحوال لا يجد المريض مشجباً يعلق عليه متاعبه إلا الروماتزم ، والروماتزم الحقيقي منها برىء .

الوقاية خير . .

وإذا كان لدى الأطباء أكثر من وسيلة يحتالون بها على علاج كثير من هذه الأمراض ، فإنه لا توجد قاعدة عامة لتوقى آلام المفاصل ، وإن كانت فى تعاليم الصحة الشخصية بعض الخطوط العريضة لتعاشي هذه الآلام .

ومن هذه الخطوط تفادى البرد والرطوبة والتيارات الهوائية بقدر
الإمكان ، واستعمال عوازل الرطوبة في جدران المباني ، وارتداء الصوف
على الجسم وفي الأقدام في الجو البارد ، وتجنب الإجهاد العضلي العنيف
ولاسيما في عمال النقل والمناجم والمعادن . . . ومحاربة أى بؤرة للتقيح في
الجسم ، كتقيح الزور والجيوب الأنفية والأسنان . . . ثم استشارة
الطبيب في كل ما يطرأ علينا من هذه الآلام . . .



خدعوك فقالوا :

إن القلب ينبوع العواطف

مخدوعون هم أولئك الذين يظنون أن استبدال قلب في عنفوان الشباب بالقلب المريض العجوز المتداعى من المرض والشيخوخة سيغير من الانفعالات العاطفية للشيخ ويجعله يحمر بسرعة من الحجل ، ويرى أجفانه دلالاً وحياءاً ! !

لقد بدأت أقلام الكتاب تدغدغ جنب الشيخ واشكانسكى ، وهو مازال يجتاز الفترة الحرجة من جراحته ، بفكاهاتها المضحكة ، وحتى الجراح الذى أجرى هذه الجراحة التاريخية نفسه ، بدأ يتحدث عن القلب الصغير الشاب الذى يتأرجح فى القميص الفضفاض ، المتخلف عن القلب المستأصل العجوز . .

ويأطول ماسيلقى الشيخ واشكانسكى من لدعات أقلام الكتاب التى لا ترحم ، ويأما أكثر ما سوف يجد نفسه ، وقلبه المستعار محوراً لفكاهات العالمين ! !

مشرح مظاهرات

إن القلب ليس ينبوع الانفعالات العاطفية ، ولكنه مسرح لمظاهراتها ، ومجال لترداد صدى متافاتها القادمة من بعيد .

فالقلب ليس أكثر من مضخة ، تقوم على صغر حجمها الذى لا يكاد يتجاوز حجم قبضة إحدى يديك : بعمل هائل : تدفع فيه ما قد يصل إلى عشرة أطنان من الدم كل يوم إلى الشرايين : وقد يزيد حين يتأثر القلب بالانفعالات العاطفية أو بالإرهاق البدنى الشديد .
أما منبع الانفعالات العاطفية ، والخاوف ، والأفراح والأحزان ، فأكثره من البيئة وضغوطها المختلفة : ومباهجها وتعاساتها الكثيرة ، وبعض منه من الجسم وآلامه ، ومن العقل ومن همومه الثقيل ، يصل كل ذلك عن طريق المسالك الحسية المختلفة إلى الإدارة العامة للجسم ، والجهاز العصبى المركزى الذى يعمل بإرادتنا ، والجهاز العصبى الذى لا يخضع لهذه الإرادة ، وإنما يعمل دون وعى منا فيجعل قلوبنا تنفث حتى ونحن فى غاشية إغماء ، ويجعل جهازنا الهضمى يعمل حتى ونحن نيام ، ويجعل أحشاءنا ينهض كل منها بدوره فى هذا الجهاد المتسق العظيم الذى يقوم به فى الجسم أثناء الحياة ، ولو وقف هذا الجهاز العصبى غير الخاضع لإرادتنا ، أو أضرب عن العمل خلال لحظات من هذا الغياب المؤقت عن الوعى ، لأتت العيش بنا ، ولغربت شمس الحياة . .
ويؤازر هذا الجهاز العصبى اللا إرادى فى السيطرة على انفعالاتنا العاطفية جهاز آخر معقد من بعض هرمونات الغدد الصماء ، يعمل معه فى تعاون كامل وانسجام تام .

هذا إلى أن هذه الانفعالات العاطفية وثيقة الصلة بغرائزنا الموروثة إلى حد كبير ، فالخوف وثيق الصلة بغريزة البطش والسلطان وهكذا . . .

وليس للقلب في هذه الانفعالات كلها إلا تلقى الأوامر التي تصدر إليه عن طريق الأعصاب ، ليدفع دماء أكثر إلى هذا العضو أو ذاك تبعاً لمقتضيات الأحوال .

الخوف القديم والخوف الجديد

لقد كانت هذه الانفعالات القوية تساعد الإنسان البدائي كما تساعد الحيوان ، على النجاة بحياته من بوائق الخطر والهلاك ، أو على اقتحام هذه البوائق والانتصار عليها ، والخروج منها بسلام .

أما اليوم فلم يعد في حياتنا وحوش ، ونمط حياتنا يحتاج إلى الهدوء أكثر مما يحتاج إلى العنف ، وبعض انفعالاتنا العاطفية كانهفالات الفرح والحب انفعالات بناءة تمد في العمر وتطيل في الحياة . وبعضها الآخر انفعالات هدامة ، مبعثها الهموم التي تخترم الجسوم نحافة — على ما يقول المتنبي — وتشيب ناصية الصبي قبل الأوان ، ومنها انفعالات الحسد والحقد والبغض وأوهام المرض المسماة بالوسواس .

إن هذه الانفعالات الأخيرة إذا استبدت بنا أدت إلى مرض البدن والنفس والروح . . هضمنا يسوء ، وحياتنا تظلم ، وقلوبنا تخفق خفقان الحيوان المدعور ، وضغط دمنا يرتفع ، ونبضنا يزداد ، وقد نصاب بقروح المعدة والأمعاء ، وقد نصاب بالربو ، وقد تؤدي بنا نوبة غضب إلى نزف دماغى خطير .

إن الهم — وهو خوف مزمن — يحدث من الأمراض في البشر

أكثر مما كانت تحدثه الوحوش كلها بالحيوان ، وأكثر مما تحدثه كل
الميكروبات بالبشر في الوقت الحاضر من أمراض !

حيرة

لقد حار البشر منذ خلقوا في أصل العواطف وينبوع الانفعالات .
رعموا الكبد مصدرها في البداية ، فقال شاعرهم :
ولى كبد مقروحة - من الهموم طبعاً ! . . من يبيعني بها كبداً ليست
بذات قروح !

وعزوها تارة إلى الطحال ، ولا يزال كثير من الريفيين يتحدثون
عن الطحال الذي يوشك أن ينفجر من الغيظ . . .
ثم أسندوها أخيراً إلى القلب لأنهم وجدوا القلب يخفق كلما انفعل
الإنسان ، ووجدوا الوجنات تتضرج بحمرة الحجل ، أو تبث من صفرة
الدعر ، وللشعراء في هذا المجال صولات وجولات حسبي في الإشارة
إليها ، أن أذكر قول إسماعيل صبرى :

أقصر فؤادى فما الذكرى بنافعة

ولا بشافعة في رد ما كانا

سلا الفؤاد الذى شاطرته زمناً

حمل الصبابة فاخفق وحدك الآن

ومن العجب أنهم - حتى القرن الثامن - عشر لم يفكروا قط من هذه
الناحية في الدماغ ، وفي الجهاز العصبي ، لأنهما ظلا بعيدين جداً عن

مسرح المظاهرات العاطفية . وعن صدى هتافاتها العالية في سائر الأعضاء والأحشاء ، كما ظلا موغلين في التخفى وراء أسوار حصونهما العظمية المنيعه ، التي لا تسمح بالدخول لنظرات التطلع وتأملات الفضول .

شيخ أو فتاة

سواء إذن أكان قلب فتاة أم قلب رجل مسن عجوز ذلك الذي يتأرجح في القميص الفضفاض الذي خلفته الجراحة بين جوانح الشيخ واشكانسكى ، فهو من ناحية الانفعالات العاطفية ، إنما ينفذ الأوامر التي تصل إليه من دماغ السيد وأعصابه . دون أن يتأثر أقل تأثر . بطبيعة فلذة اللحم التي استعيرت له من قلب فتاة ، وتركت هناك تتأرجح في قميص فؤاده الفضفاض .

سيظل هذا القلب الفتى ، إن عاش السيد واشكانسكى ، مجرد مضخة ، تكبس الدم في شرايينه سبعين مرة في الدقيقة . وتأتمر من حيث الانفعالات العاطفية بأمر الدماغ والأعصاب والهرمونات ، التي تصدر من الشيخ واشكانسكى القديم ، لا من بضعة اللحم الحديدية ، المستوردة من الخارج ، والمستعارة من قلب فتاة !

• • •

ملاحظة : الشيخ واشكانسكى هو أول مريض زرع في صدره قلب جديد ، عاش به فترة من الزمان ، ثم لفظه الجسم ، فمات .

خدعوك فقالوا :

إن تشوهات القلب ضعف فسيولوجي فيه

تشوهات القلب التي يولد الجنين وهو مصاب بها ، أمر شبه مألوف وليس فيه أية غرابة أو شذوذ ، وهي نوع من التشوهات العضوية العامة التي تصيب الجنين في حياته الرحمية . سواء في العين فتعميها ، أو في الأذن فتصيبها بالصمم ، أو في الأمعاء أو سواها من الأعضاء فتحدث بها ماتشاء من آفات وتشوهات القلب الرحمية . سواء أكانت ثقباً في جدارانه الداخلية أم ضيقاً في صماماته ، أم اتصالات من أى نوع بين مجرى الدم النقي المحمل بالأوكسجين . ومجرى الدم غير النقي المحمل بثاني أكسيد الكربون . تؤلف على ما يقال حوالى خمسة في المائة من جميع أمراض القلب في كافة الأعمار ، والمقول إن واحداً من كل ألف من المواليد ، يولد بآفة أو أخرى من هذه الآفات ، أصابت قلبه وهو جنين ، إنها آفات شائعة نسبياً وشبه مألوفة . والطفلة غزالة البالغة من العمر عشر سنوات والتي عثر عليها سيادة محافظ الوادى الجديد في واحة الفرافرة مصابة بثقب في القلب ، فحملها معه مشكوراً لتعالج في أحد المستشفيات الجامعية ليست أولى ولا أخرى حالات التشوه الرحمي الذي يصيب عضواً أو آخر من أعضاء الجنين .

ينبوع الآفات الرحمية

إن هذه الآفات ليس مصدرها الأول — على ما قال راوى الخبر — هو ضعف القلب الفسيولوجى أو اتساع الثقوب الكائنة فيه ، والتي يجب أن تتلاشى عند الولادة أو بعدها بقليل ، فإن كل طفل معرض لها فى حياته الرحمية ، أو كل طفلة بالأحرى ، فإنها أكثر حدوثاً فى البنات منها فى الصبيان ، ولو كانت الطفلة هى السفيرة عزيزة . أو كان الطفل هو الابن البكر لعنزة بن شداد . إن ينبوع الأول للتشوهات الرحمية فى الجنين هو إصابة الأم أثناء الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل — أى فى أثناء تكوين الجنين — ببعض الأمراض المعدية الناشئة من عدوى الفيروسات ، وأشهرها من هذه الناحية وأكثرها إسهاماً فى إحداث هذه التشوهات فى الأجنة هى الحصبة الألمانية . . . إنها المجرم الأول فى هذه الجنايات على الجنين المسكين .

مرض قائم بذاته

إن الحصبة الألمانية ليست نوعاً من الحصبة ، ولا تمت لها بأية صلة أو قرابة ، فهى مرض قائم بذاته وقد يشبه الحصبة بعض الشيء فى الأعراض ولكنه أبطأ منها عدوى ، وأقل منها انتشاراً ، وأهون منها ضراوة ، وأبسط منها مضاعفات ، وليس مثلها قدراً مقدوراً على الطفل فى السنوات العشر الأولى من حياته ، والطفل الذى يعدى بها

وهو صغير قد يعدى بها إذا تعرض لعدواها وهو كبير . وكل أهمية الحصبة الألمانية مستمدة من أنها إذا أصابت حاملاً في الشهر الأول من الحمل فإن فرصة إصابة الجنين بالتشوه تكون خمسين في المائة وإذا أصابتها في الشهر الثاني من الحمل كانت فرصة إصابة الجنين بالتشوه خمسة وعشرين في المائة ، وإذا أصابتها في الشهر الثالث كانت الفرصة أقل وفي الشهر الرابع تهبط الفرصة إلى حوالي عشرة في المائة ، أما بعد الشهر الرابع فالأغلب ألا يصاب الجنين بأية تشوهات .

بلاوى

وقد يشبه الحصبة الألمانية في هذه الناحية مرض النكاف الوبائي ، وهو التهاب فيروسى يصيب الغدة اللعابية النكفية التى تحيط بأسفل الأذن من جميع الجهات . . . إن هذا المرض يشبه الحصبة الألمانية من حيث إنه ليس شديد العدوى ، وإنه لا يصيب كافة الأطفال في مرحلة الطفولة ، وإنه قليل المضاعفات في الأطفال ، وإن الطفل الذى ينجو منه قد يصاب به على كبر ، وقد يورثه حينئذ كثيراً من مضاعفات الغدد الصماء ، ولا سيما الغدد الجنسية وغدة البنكرياس ذات العلاقة الوثيقة بمرض السكر . وقد يشبه الحصبة الألمانية كذلك في أنه إذا أصاب حاملاً في الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل ، قد يعرض الجنين لبعض التشوهات .

لو . . حرف امتناع

وأو كنت مشرفاً على الصحة المدرسية في هذه البلاد لوقفت كافة الإجراءات التي تتخذ في المدارس الابتدائية بالذات ، لحماية الأطفال من عدوى الحصبة الألمانية والنكاف . إنهما مرضان يجب أن يشجع كافة أطفال المرحلة الابتدائية على الإصابة بهما في هذه السن الآمنة من مضاعفات المرضين ولا سيما في مدارس البنات .

متاعب الإشعاع

ثم إن الأمراض المعدية ليست وحدها سبباً في إحداث تشوهات الجنين . إن تعريض الحامل في الأشهر الثلاثة الأولى من الحمل للإشعاع السيني ، سواء بقصد تشخيص الأمراض أو علاجها ، يمكن أن يؤدي هو الآخر إلى تشويه الجنين . وربما كان الإشعاع الذري أسوأ إيذاء من الإشعاع السيني للجنين ، هذا بطبيعة الحال . إذا أعفى الحامل من الموت مع كل شيء يموت ، أو أعفاها من العقم إذا عاشت ، أو من التعاسة الأبدية في كل الأحوال .

يحييها وهي رميم

وعلى أية حال فإن تشوهات القلب الرحمية إن كان بعضها لا يتفق مع الحياة ، فإن أكثرها ولا سيما الثقوب التي تبطئ في الانسداد طبيعة للعلاج وقابلة للشفاء على مبضع الجراح . وحوال ثمانين في المائة من الأطفال المثقوبين القلوب ، والذين يعالجون بمبضع متخصص ،

ينالون الشفاء ، ويعودون إلى الحياة الطويلة المثمرة كأن لم يكن بين قلوبهم وبين الموت غزل سابق أو ودّ قديم .

إن الطفل الذى يلهث عند أقل مجهود . والطفل الأزرق اللون ، والطفل الذى فى قلبه لغط ، والطفل المتضخم القلب ، والطفل الضعيف النمو ، كل هؤلاء يجب أن يعرضوا على طبيب متخصص فى أمراض القلب ، فقد تكون فرصة الشفاء أمامهم - إذا كانوا مرضى بالتشوهات الرحمية فى القلب - أكبر وأضمن من فرصة الشفاء من الإسهال . والحامل التى يمرض فى بيتها طفل بالحصبة الألمانية أو النكاف الوبائى ، أو أى مرض فيروسي من أمراض الطفولة ، يجب أن تستشير طبيبها فإن « ترسانة » الطب فيها أسلحة تستطيع إنقاذ الحامل من الإصابة بهذه الأمراض ، فإن أصيبت بالمرض برغم ذلك فالحير أن تجهض منعاً « لوجع القلب » فى المستقبل ، وجع قلبها هى ، ووجع قلب الطفل البريء إن الإجهاض فى هذه الحالة إجهاض شرعى ، ومرخص به مادامت الآراة الطبية متفقة على دواعيه .



خدعوك فقالوا :

إن صورة القاتل . . . تنطبع في عين القتيل

إن العين البشرية تشبه آلة التصوير من بضعة وجوه ، فإن لها عدسة كعديستها ، وحجاباً حاجزاً للضوء مثلها ، وشبكية تشبه لوحها الحساس لالتقاط صور المرئيات ، ولكن الشبه بين الاثنين ينتهى عند هذه الحدود فصور المرئيات تقع على شبكية العين كما تقع على اللوح الحساس في آلة التصوير ، ولكنها لا تنطبع عليها وإنما تنتقل منها كصور وهمية لا قيمة لها ولا حقيقة ، عن طريق الأعصاب ، فتصل إلى المخ بطريقة معقدة ، ويقوم المخ بترجمة الصورة الوهمية ، وتحميصها وتثبيتها ، واختزانها في الذاكرة إن كانت من القيمة أو الروعة أو الجمال بحيث تستحق الاختزان في سجل الذكريات .

فالمخ إذن هو الذى يرى المرئيات التى تقع على شبكية العين ، وليست العين إلا مجرد وسيط لنقل المرئيات .

وعلى هذا الأساس يكون انطباع صورة القاتل في عين القتيل خرافة ضخمة ، ابتدعها مؤلفو القصص البوليسية ليضيفوا على قصصهم شيئاً من الروعة ، وليحلوا مشاكلهم القصصية بطريقة يعيا عن توقعها واستنتاجها خيال القراء .

وقد انتشرت هذه الخرافة في مثل هذه القصص منذ بداية هذا القرن ،

وكرر تداولها في السوق ، وقيل إن القليل يحتفظ في شبكية عينه بصورة من وجه القاتل ، بالوضع والملامح التي شاعت فيه أثناء ارتكاب الجريمة . وأن أخذ صورة فوتوغرافية لعين القاتل ، وتكبيرها ، قد يكون هو الأثر الوحيد الذي يقودنا إلى الإمساك بتلابيب المجرم ، عندما يزيل كل بصمات أصابعه من أكر الأبواب ، ويتخذ كل الاحتياطات لإثبات وجوده في مكان غير الذي ارتكبت فيه الجريمة ، وفي الوقت الذي ارتكبت فيه .

بل إنه في إحدى الجرائم التاريخية المشهورة في ذلك الحين ، وفي إنجلترا بالذات ، اشتد تنديد الجمهور برجال سكوتلانديارد ، عندما تبين في أثناء المحاكمة أن البوليس لم يصور عين القاتل !
وتحت هذا الضغط قامت إدارة المباحث في سكوتلانديارد بعمل تجارب واسعة النطاق ، اوضع هذه الخرافة في ميزان الامتحان ، وراحت تصور أعين القتلى كلما حدثت جريمة من هذا القبيل ، وبآلات فوتوغرافية في منتهى الدقة والكمال ، فلم يتبينوا أية صورة للقاتل في جميع الأحوال .

إن شبكية العين . المكونة من غشاء عصبي شفاف في الحياة ، كانت توجد في كل مرة ، وقد فقدت شفافيتها تماماً بعد الموت ، ولم تعد تقرأ عليها أية قصة من تلك القصص الرائعة التي مرت بها طول الحياة .
والعين على أنها آية باهرة من آيات الله ، بارعة التكوين ، هائلة الإعجاز ، إلا أنها إذا شبهت بآلة التصوير المعروفة كانت من أتعفه

آلات التصوير . ولقد قال ثقة من ثقات الآلات البصرية : « إني لو بيعت لى آلة تصوير فوتوغرافية كالعين البشرية ، لرددتها إلى بائعها بعد أول تجربة . وطالبتة بتعويض » .

ففى كل آلة تصوير جيدة ، أو ميكروسكوب ، أو تلسكوب نتوقع أن نرى العدسات متناظرة تماماً فى الشكل والقوة ، ومبرأة من كل العيوب . وما هكذا الشأن فى عدسات العيون ، وما يقال عن العدسة يمكن أن يقال عن الحجاب الجاز للضوء ، وعن الشبكية واللاوح الحساس ومع ذلك فإن كل خلية من خلايا العين فيها من آيات العبقريّة والإعجاز ما لا يوجد عشر معشاره فى أى جهاز بصرى ابتدعه البشر ، وفى عملها من السحر والعظمة ما لا يوجد له نظير فى أى تلسكوب أو ميكروسكوب لا شىء إلا لأنها حية ، ولأنها من صنع الله .

إن هذه الآلة الفوتوغرافية على كمالها ووفائها بحاجات الرؤية للإنسان لا تستطيع أن ترسم صورة قاتل على عين قتيل ، لأنها لم تعد لهذا الغرض التافه ، وقد تفوقها فى هذه الناحية آلة تصوير لا يتعدى ثمنها عدة قروش !



خدعوك فقالوا :

إن دمك شربات

قد يتقاطر الشهد منك ظرفاً ولطفاً وخفة . ولكن دمك لا يمكن أن يتحول إلى « شربات » أبداً ، وإلا فطست في الحال ، فإن قلبك يكف حينئذ عن الحفقان ، ويعيا تماماً عن دفع هذا الشراب اللزج الثقيل في الشرايين ، إذ أن القلب خلق ليتعامل مع دم سائل خفيف لطيف ، لا مع سائل لزج كثيف ، ولو كان في حلاوة « الشربات » . إن دمك في حالة الصحة يحتوي على مقدار صغير من السكر ، يكاد لا يتغير ، وإن كان يتذبذب علواً وانخفاضاً حول مائة ملليجرام في كل مائة سنتيمتر مكعب من الدم ، وذلك عند قيامك من النوم . ولما كان ذلك يبلغ حوالي خمسة لترات ، فعنى ذلك أن كل مافى دمك من السكر في هذه اللحظة لا يزيد كثيراً على ملعقة شاي من السكر « السترفيش » وهذا المقدار النافه لا يمكن بحال أن يحيل دمك إلى شربات !!

وحتى بعد أن تتناول وجبة من وجبات طعامك ، وذلك هو الوقت الذي يرتفع فيه منسوب السكر في الدم إلى أقصى ما يصل إليه في حالة الصحة ، فإن قصارى ما يبلغه السكر في دمك حينئذ لا يصل إلى مئتي ملليجرام في كل مائة سنتيمتر مكعب من الدم ، أى أنه يصبح أقل من

ضعف ما كان في حالة الجوع حين قيامك من النوم ، وأو ترجمنا هذه الزيادة إلى ملاعق ، لوجدنا أنها تمنحك ملعقة شاي أخرى فوق الملعقة التي كانت في دمك من السكر فيصبح كل ما في دمك ملعقة شاي من السكر ، وهو مقدار لا يكفي لتحلية فنجان من الشاي ، ولا يمكن بطبيعة الحال أن يجعل دمك شربات ، حتى لو كنت نجيب الريحاني أو أمين الهندي أو من شئت من نجوم الفكاهة ، وأصحاب الدم الموصوف بأنه دم شربات ...

حسبة برما

إنك تأكل في الوجبة الواحدة من المواد النشوية والدهنية والزلاية ، وهي المواد القابلة للتحويل في الجسم إلى سكر ، ما قد يصل في الوزن إلى كيلوجرام من السكر أو يزيد ، وهذا المقدار لا يخرج من جسمك كسكر في حالة الصحة قط ، فإذا كان كل ما بقي منه في الدم لا يزيد على ملعقة شاي فأين ذهب باقيه ؟

إن الذي يستطيع أن يجيب عن هذا السؤال هو البنكرياس ، أو البنقراس ، أو « الحلويات » وهو إحدى الغدد الصماء التي تفرز الهرمونات وهرمون البنقراس الأكبر هو الأنسولين المعروف .

إن مصنع الأنسولين لا يكاد يحسّ أثر زيادة السكر في الدم حتى تدق فيه أجراس الخطر ، فينشط إلى إنتاج الأنسولين ، وصبه في الدم بالمقدار الذي يتناسب وزيادة السكر فيه ، فيساعد الأنسولين على

دفع السكر الزائد إلى الأنسجة ، حيث يستعمل وقوداً هناك لإنتاج الحرارة اللازمة لتدفئة الجسم من جانب ، ولإمداده من جانب آخر بالطاقة والقدرة على العمل والحركة والنشاط ، وبدون الأنسولين لا يتم هذا الاحتراق ، وهو بعض ما يحدث في مريض السكر أو الديابيط .

فإذا زاد من السكر شيء على حاجة الأنسجة إلى الوقود فإن الأنسولين يساعد على تحويل هذه الزيادة إلى نوع من النشا الحيواني ، قابل للاختزان في الكبد والعضلات ، كرصيد للسكر ، يسحب الجسم منه حاجته في غير أوقات الطعام . . فإن بقي من السكر فضل بعد ذلك فإن الأنسولين يحيله إلى دهن ، كما يحدث في الأشخاص النهمين ، الذين يزيد السكر في طعامهم على حاجات الاحتراق والتخزين ، ويترتب هذا الدهن الكثيف تحت جلودهم ، وفي كروشهم ، وبين الأحشاء ، مضيفاً من الشحم تلالاً إلى تلال . .

حلقة أخرى في قصة السكر . .

هذا جزء من قصة السكر في الدم وما يفعله فيه الأنسولين . . ولو ظل الأنسولين يفعل فعله هذا في سكر الدم لما بقي من هذا السكر شيء . . . حتى ملعقة الشاي البسيطة التي رأينا أنها فيه باستمرار ، كانت حرة أن تذوب هي الأخرى ، وترتك مقطوع الصلة نهائياً بالشرابات ! !

بيد أن كل نشاط في الجسم له ضابط ، وضابط الأنسولين هرمون آخر من هرمونات الغدد الصماء . . .

نعم ، إن نقص منسوب السكر في الدم يدفع مصنع الأنسولين إلى التوقف عن العمل ، حتى لا يرسل إلى الدم فيضاً جديداً من هذا الهرمون ، ولكن الجزء الذي يكون باقياً منه في الدم يكفي لو ترك على حل شعره لخلخلة منسوب السكر ، وما يؤدي إليه ذلك من شعور بالضعف ، والانهيار ، وارتعاش في الأيدي ، واهتزاز في الركب وغزارة في العرق وخفقان في القلب ، وهي الأعراض التي يعرفها كل مريض بالسكر ، يعالج بالأنسولين ، حين تزيد جرعة الدواء على الحد المقرر فتخفض منسوب السكر في الدم عن مستواه الطبيعي المألوف . . . إنها الأعراض التي من أجلها يحمل كل مريض من هذا النوع قطعة من الحلوى في جيبه ليستعين بها على تعويض ما نقص من سكر الدم عن هذا المنسوب .

ولكيلا يحدث ذلك ينبري هذا الهرمون الآخر لبقية الأنسولين الموجودة في الدم والزائدة على الحاجة فيبطل عملها ، ويحفظ منسوب السكر في الدم حيث ينبغي أن يكون ، أي ملعقة صغيرة من السكر لا يمكن أن تحيل دمك إلى شربات ، ولو كانت من السكر النبات !!

الوجه الآخر للصورة

لكن ماذا يحدث لسكر الدم إذا تعطل إفراز الأنسولين أو تعرقل

لأى سبب من الأسباب ؟ .. وتعرقل تبعاً لذلك احتراقه في الأنسجة واختزانه هناك ؟

يحدث مرض السكر أو الديابيط كما يسمى بطبيعة الحال . . . وفيه يرتفع منسوب السكر في الدم ، من مائة ملليجرام إلى مائتين ، وربما إلى ثلثمائة أو أربعمائة ملليجرام في كل مائة سنتيمتر مكعب في الدم . . . ومع ذلك ، فإن دمك لا يتحول حتى في هذه الحالة إلى شربات ، وأن مقدار السكر الذي يكون في الدم حينئذ لا يتعدى أربع ملاعق شاي . . إن الذي قد يتحول في هذه الحالة إلى شربات قد يكون بول المريض ، لأن السكر الذي لا يحترق في الأنسجة ولا يخزن ، تنفضه الكلى إلى الخارج مع البول ، مع مقدار كبير جداً من الماء ، وذلك عرض من أعراض مرض السكر . . ولكن ليس هذا كل شيء في هذه الأعراض .

إن هذا المقدار الكبير من الماء الذي تستعمله الكلى في إذابة هذا السكر ونفضه في البول ، يحتاج إلى تعويض ، فيحس المريض عطشاً دائماً وهو عرض آخر من أعراض المرض . . . بول غزير وشرب ماء كثير .

قراءة كثير وذمة مفيش !

ثم إن الأنسجة التي فقدت جريتها من الطعام والوقود تضمر وتضمحل ويصاب المريض الذي يكون بدينًا في العادة بالهزال ، ويفتر نشاطه

وتضعف قواه . وتقل مقاومته للأمراض . . .

ولكن هذا الهزال مع ذلك يصحبه شعور دائم بالجوع ، وشهوة دائمة إلى الأكل ، كأنما هي صرخة استغاثة من الأنسجة التي حرمت. الطعام . . وهكذا يصبح المريض من كثرة الأكل ، وقلة بركته أشبه ما يكون بالقطط . . . « قرابة كثير وذمة مافيش !! » كما يقولون . . . وإذا لم يعالج المريض ، فقد يحدث له مع مرور الزمن كثير من المضاعفات التي يهدد بعضها الحياة .

قليلًا من التواضع يا أخى

ولما كنت لا أتحدث هنا عن مرض السكر ، وإنما أتحدث عن دمك الشرابات ، فلن أترك السكر جانباً لألتمس منك قليلاً من التواضع يا أخى ، شيئاً من الاقتصاد فى النظر ، فإن دمك مهما كنت حتى ولو كنت مريضاً بالسكر ، هيهات أن يكون « شرابات » !



خدعوك فقالوا :

ضغط الدم يساوي السن مضافاً إلى مائة

ضغط الدم في الكائن البشري - وهو في عتقوان صحته - لا يخضع لمقياس ثابت ؛ وهو يختلف في شخص عنه في آخر ، مع تكافؤ السن والبيئة والظروف ، ويتراوح تراوحاً طبيعياً بين هذا وذاك ؛ في حدود يرمح فيها الحصان ، بل إنه يتذبذب بين العلو والهبوط ، في الشخص الواحد ؛ وفي اليوم الواحد عدة مرات ، وهو أشبه ما يكون بأسعار القطن في بورصة يعتادها كثير من عوامل التقلب . . .

إنها بورصة تكرم أحياناً ، وتلؤم أحياناً ، وتستغل إلى حد ما جهلنا ببعض أركانها وبعض عملياتها التي لا تزال حتى اليوم متشحة بالظلام ، بيد أن حزب الصعود فيها مع ذلك يتألف من الوراثة المعتلة ، والشيخوخة المرهقة ، والبدانة ، والإفراط في تلبية نداء النزوات ، والقلق العصبي والاندفاع وراء بروق المطامع بلا عقل ولا زمام . . .

كما أن حزب النزول يتكون من المعيشة الهادئة ، والمزاج المعتدل ، والتوسط ؛ وإكرام الجسم بمنحه حقه الطبيعي في النوم ، والرياضة والاسترخاء بعض ساعة في وسط النهار ، والمتعة الصافية براحة الأسبوع وعطلة العام ، والنظر إلى الحياة بعين الفيلسوف الذي يجدها أحقر من أن يبكي على لبنها المسكوب ، وفوق هذا كله تجاهل ضغط الدم كلية ؛

ونسيانه إذا أمكن . وتجنب سؤال الطبيب - إذا فحصه - عن مقداره ومداه ! !

إن الوعي المرهف لأرقام ضغط الدم وتذبذبها الطبيعي ، كثيراً ما كان هو نفسه عاملاً من عوامل الصعود في هذه البورصة ، وكثيراً ما خلق مرضى بضغط الدم المرتفع ، من أشخاص كانوا خالقاً بالصحة والعافية والمتعة . أو لم يندفعوا وراء دعوة الانتحار الصامتة ، المنبعثة من جهاز الضغط الأخرس ، التي لا يسمعونها ولا يلبونها إلا عبيده الأرقاء .

ولقد عرفت رجلاً من أفذاذ هذا البلد ، كان يسجل ضغط دمه كل يوم ، فإزال به الجهاز الأخرس حتى قتله في بضعة أعوام ؛ أحوج ما كانت إلى شمس الساطعة سماء هذه البلاد .

لعله كان من الخير للبشرية لو لم يعرف هذا الجهاز ، الذي إن كان قد أعان الطبيب كثيراً على تشخيص وعلاج بعض الأمراض ، فإنه لسوء الحظ قد استعبد البشرية لعنصر مبتكر من عناصر القلق النفساني ووضع على عاتقها حملاً ثقيلاً من المخاوف والأوهام .

في سنة ١٧٠٨ أوثق الراهب الإنجليزي « ستيفن هيلز » مهترته وهي راقدة على ظهرها ، وأدخل في شريان فخذها أنبوبة من النحاس ، وصلها بأنبوبة من الزجاج ، فوجد دم المهرة يرتفع في الأنبوبة الزجاجية حتى يصل إلى علو ٢٥٠ مليمتراً ، فأدرك أن الدم في شرايين الحيوان واقع تحت ضغط معين .

وبعد مائة وخمسين عاماً من هذا الاكتشاف كان الجراح الفرنسي

« فيفر » يوشك أن يبتز ذراع مريض ، فخطر له أن يعيد تجربة الراهب الإنجليزي على الذراع البشرية الموشكة أن تبتز فأدخل في شريانها أنبوباً ، وصله بمانومتر زئبقي ، فوجد أن ضغط الدم في الشريان يعادل مائة وعشرين مليمتراً من الزئبق .

وفي سنة ١٨٥٥ حاول طبيب ألماني أن يقيس ضغط الدم البشري في الشرايين بإيجاد مقدار الضغط الكافي لوقف مسرى الدم فيها من الخارج ؛ دون حاجة إلى فتح الشريان ، ولكنه فشل في إيجاد جهاز مناسب ، وإن كانت فكرته تحققت على يد « سيبيان ريفا روتشي » الإيطالي الذي اخترع جهازاً لقياس الضغط على أساس النظرية الأخيرة وهو الجهاز الذي يحمله اليوم كل طبيب في حقيبته بتعديل طفيف ، وهو نفس الجهاز الذي منذ عرف ازدادات معارف الطبيب ، وازدادت معها متاعب البشر ، وازدادت مخاوفهم ، وازداد شعورهم بأشباح الموت الراقصة على مسرح الحياة .

عرفت مرة سيدة اشترت راحتها وسعادتها بقطع خط التليفون في بيتها وما أخرى كثيراً منا بأن يشتروا من نفس السوق راحتهم وصحتهم عن طريق قطع صلتهم بجهاز ضغط الدم - أو بأرقامه على الأقل - التي تنعب في بعض الأحيان نعيب اليوم والغربان ! !

خدعوك فقالوا :

إن الدبابيس والإبر تسرى في الجسم مع الدم

جاءني صديق يلهث وفي وجهه قلق وفي صوته يواذر مأساة يقول لي إن ولده قد ابتلع دبوساً من دبابيس الشعر ، وإنه حائر لا يدرى ما يصنع فقد سمع عن الدبابيس والإبر التي تخترق الأمعاء وتسرى مع الدم وتذهب إلى القلب ، وتنغرس فيه ، ويكون من أمرها مالا بد أن يكون . . . وضحكت لصديقي وقلت له إنه لا داعي للحيرة ولا للقلق ، وإن خير ما يصنع هو أن ينتظر مطمئناً نزول الدبوس من بطن ولده ، فإنه نازل لا محالة ، وفي الحالات النادرة جداً يتعرقل مرور مثل هذه الأجسام الغريبة في المعدة والأمعاء بحكم أنها كبيرة الحجم ، أو مدببة أو ذات زوايا حادة تجعلها تنحسر انحساراً في بواغيز الأمعاء ، والأشعة كفيلة بإظهار مكانها دائماً ، وإزالتها يسيرة على الجراح في أغلب الأحوال .

ثلاثة « بلاليع »

ثمة ثلاث طوائف من الناس تتعرض لابتلاع هذه الأقذاء : الأطفال والمجرمون والمجانين . وابتلاع هذه الأقذاء الغريبة لا يحدث دائماً عن طريق السهو أو الخطأ كما هو المتوقع ، ولكن الدوافع فيه

متعددة بتعدد نفسيات من يتلعونها وأعمارهم ، فال فئة الأولى وهى فئة الأطفال الدافع فيها عادة هو الجهل التام بنتائج هذا العمل ، وأكثر ما يتلعونه قطع النقود الصغيرة والدبابيس ، وقد يكون الدافع أحياناً إخفاء هذه الأشياء عن عيون الآباء إذا اتهمهم بسرقتها ، وقد يتلعون بعض هذه الأقذاء مع الطعام عفواً . . . وقد روى لي أحد الجراحين أن المرة الوحيدة التى دعى فيها إلى إسعاف طفل من هذا القبيل ، كان المصاب فيها طفلاً فى الثامنة ، أكل قطعة كبيرة من اللحم - ولعله ازدردها ازدراداً ، وكان بها شظية حادة من العظم ، فمرت بسلام فى المريء والمعدة والأمعاء ، ولكنها انحشرت فى آخر مرحلة من مراحل سفرها الطويل ، وأزيلت بجراحة بسيطة دون أن تنشأ منها أية أضرار .

أساتذة « البلع »

وأساتذة بلع الأجسام الغريبة هم الفئة الثانية : فئة المجرمين . . . وكثيراً ما يلجأ هؤلاء إلى هذه الوسيلة ليتخلصوا من المسروقات الثمينة التى يضبطون بها أو الأحجار الكريمة ، أو المخدرات . . . وفى الحالة الأخيرة - المخدرات - لا ينشأ الخطر منها لأنها أجسام غريبة داخل المعدة أو الأمعاء ، ولكن لأنها سموم قد يؤدى ابتلاعها إلى الموت من أقصر طريق . . . بيد أن بعض المجرمين من تجار المخدرات يخفيها فى أسطوانة معدنية صغيرة ويلحمها ثم يتلونها إذا ضبط بها أو يخفيها فى الأمعاء ، اعتماداً على أنها ستمر بسلام ، ولكن الأقدار كثيراً ما تتدخل لغير

مصلحة الفاعل في مثل هذه الظروف . ولقد روى لي الأستاذ الدكتور محمد عمارة أستاذ الطب الشرعي في جامعة القاهرة مأساة شخص من هؤلاء الأشخاص ابتلع أسطوانة من هذه الأسطوانات ، في أثناء ضبطه ، ولكن القرائن كانت قوية ضده ، فقبض عليه وقدم للمحاكمة . وفي أثناء الجلسة اتصل بأهله وأخذ منهم خمسة قطع نقود فضية من ذوات الخمسة القروش ، وعشرين قطعة من ذوات القرشين ، وساعة جيب صغيرة ، وابتلعها كلها ليستعملها في السجن رشوة للحراس والتجاراً مع الزملاء في السجائر والحلوى كما يحدث كثيراً في هذه الظروف . ولقد كان خليقاً بأن يحقق كل ما أراد لولا تدخل الأقدار ؛ فقد مات المتهم في اليوم التالي ، ووجدت هذه الأشياء في بطنه أثناء التشريح ، ولكنها لم تكن مطلقاً سبب الوفاة ، وإنما كان السبب أن الأسطوانة التي فيها المخدرات موضوع الجريمة ، وكانت تحمل ثلاثين جراماً من الأفيون ، ذاب لحامها في الأمعاء ، فتحرر بعض الأفيون منها وقضى عليه .

عين الطبيب

ولقد يلجأ بعض المجرمين للتخلص من حياة السجن بابتلاع موسى من أمواس الحلاقة أو مقدار كبير من الدبابيس ومنهم من يحاول بالطريقة نفسها أن يحتال على أطباء السجن لينقلوه إلى المستشفى ، فيتمتع ولو إلى حين ، بامتيازات المرضى في الراحة والطعام ، بل إن بعضهم يحاول الوصول إلى الهدف نفسه ، ولكنه يخشى مغبة ابتلاع الدبابيس والأمواس

فيدعى أنه ابتلع شيئاً من ذلك ادعاء ، وعندما يؤخذ للأشعة يضع موسى في جيبه ، أو ورقة دباييس اعتماداً على أنها ستظهر في الأشعة بجوار الأمعاء وتخدع الطبيب ، فإذا عملت له جراحة كان هذا هو عين المطلوب . ولقد سمعت أن أحد أساتذة الأشعة وقع له حادث من هذا القبيل مع أحد المجرمين ، ولكن موضع الدباييس في صورة الأشعة استلقت نظره فيه أنه بعيد عن الأمعاء . . فعزى السجين من ملابسه وصور له صورة أخرى فظهرت فيها الدباييس ولكن في موضع آخر ، فلما صور المجرم صورة جانبية اتضح أن الدباييس في جدار البطن ولا علاقة لها ألبتة بالأمعاء . وبالبحث وجد أن المجرم كان مستعداً لكل هذه الاحتمالات فلما خلع ملابسه غرس الدبيس غرساً في جلد ظهره ليعدها عن عين الطبيب !

الخنون فنون

أما المجانين فلهم في هذا الباب نصيب كبير . . وكثيراً ما توجد في معدات بعضهم بعد الوفاة العارضة ملاعق وشوك وسكاكين وقطع من الزلط والزجاج وأطقم أسنان ضاقت عنها بوابة المعدة فظلت فيها شهوراً أو سنين ، قبل الوفاة . . ولقد وجد ذات مرة في بطن أحدهم « ورشة » مكونة من أربع وثلاثين قطعة منها مسامير ، وصواميل ومفاتيح ومفكات ، ولقد عرفت في الريف رجلاً أبله ابتلع ذات يوم عشر قطع من

« القروش الحردة » التي كانت تستعمل في النقد قديماً ، وكان حجمها مثل حجم الريال الفضي المعروف ، ومرت كلها بسلام !

الإبر القاتلة

لقد كان الاعتقاد في الإبر والدبابيس قديماً أنها أجسام طوافة في الجسم تنتقل حرة من مكان إلى مكان ، بحكم حركة العضلات . . ولكن الحالات النادرة جداً التي وجدت فيها إبر في أماكن خطيرة يمكن عدها على الأصابع . . وأكثر ما يحدث مثل هذه الإبر - ولا سيما إبر الحقن التي تنكسر في موضع الحقن ، ولم تكن ملوثة بميكروبات - أن تظل في مكانها أو تتحرك حركة ضئيلة في محيط صغير . ولقد روى لي من لا أشك في روايته أن المرحوم الدكتور علي إبراهيم انتقل إلى رحمة الله وفي جسده إبرة حقنة مقصوفة ظلت فيه أكثر من عشرة أعوام . . ولقد انكسرت في رأسي ذات يوم إبرة حقنة غليظة في أثناء جراحة صغيرة ولم أعرف ذلك إلا بعد بضعة أشهر عندما أحسست بشيء يخزني في داخل خدي كلما تئاءبت أو ضحكت . . ولما طال الأمر واشتدت مشاكسة هذا النواخز السخيف ، صورت خدي بالأشعة فوجدت فيه إبرة غليظة طولها ثلاثة سنتيمترات !

خدعوك فقالوا :

إن حمل خمسة أشهر يمكن أن يعيش !

الناس مولعون بأخبار العجائب . . . كل عجيبة تولد وتكبر وترعرع في الأذهان من طول التكرار وتهويل المبالغات ، ثم تنطفيء زوابعها بعد حين ، لأن الناس قلما يصبرون على طعام ، وسرعان ما تظهر عجيبة أخرى فتزوى الأولى ، وتتهقر مغلوقة على أمرها إلى زاوية من زوايا النسيان . ولكن الويل للعجيبة التي تنسى هذا التسلسل الواجب في التاريخ الطبيعي للعجائب ، فتولد وسابقتها مازالت جالسة في عنقوان مجدها على العرش ، والتاج على رأسها يتلأأ بما يضاف إليه كل يوم من نفائس الواقع أو ذخائر المبالغات .

من هذه العجائب التعسة الحظ عجيبة ولدت واهتمام الناس موزع بين أمريكا وبين جنوبي أفريقيا ، يتابعون باهتمامهم معجزات زرع القلوب الشابة في صدور شيوخ انهارت قلوبهم . ولدت هذه العجيبة المسكينة في هذا الزحام ، فلم تجد قابلة ترعاها ، ولا حاضنة توطئ لها مهد البقاء والنماء .

في المشرحة

وتبين من تشريح جثة هذه العجيبة السيئة الحظ أن سيده من باب

الشعرية — والفاتحة لسيدي الشعرائي — وضعت ثلاثة توأم ، وأن السيدة اسمها كذا ، وأن توأمها الثلاثة في صحة جيدة ، وأن من قام بعملية التوليد هم — بالأمانة ! — أطباء المستشفى فلان وفلان وفلان
ولا بد أن كل توأم حمل اسم طبيب من الفرسان الثلاثة المولدين !
إن العجيبة ليست في أن هذه السيدة التي من باب الشعرية وضعت ثلاثة توأم كلا . وليست العجيبة في أن التوأم الثلاثة يعيشون في صحة جيدة . . .

لا تثوي العجيبة هنا ولا هناك ، ولكن مثاها في أن الحمل الذي أسفر عن هذه الذرية الصالحة لم تزد مدته على خمسة أشهر ، وهي مدة للحمل المنجب لا تقبلها ذمة أى طب في العالم ، ولا تهضمها معارف أى طبيب لا في مستشفى باب الشعرية ولا في مستشفى واق الواق . . .
إن من المعارف العامة أن الجنين الذي يولد قبل استكمال الشهر السادس من الحمل غير قابل للحياة ، ولا حتى بالعكاز .

إن مواليد نهاية الشهر السادس نفسه يولدون في العادة موتى ، أو يولدون أحياء ولكن شعلة الحياة تنطفئ فيهم على الفور دون أن يتسع لهم الوقت لتسجيل أية معجزات ، أو الاشتراك في مواكبها ، أو وضع أكاليل الغار على رموس هذا أو ذاك من الأطباء !

ديب الحياة

نعم ، إن النطفة التي تحولت إلى علقه ، ثم مضغة خلال الأشهر

الأولى من الحمل ، تدب فيها الحياة وهي تتخلق . . . فيخفق قلب الجنين في منتصف الشهر الرابع ، وحوالي نفس الوقت يرتكض الجنين في بطن أمه تلك الارتكاضة الحلوة التي تملأ سماء الأم بالمنى والأحلام . . إن الجنين حتى . . نعم ! ولكن حياته حينئذ تكون حياة الكائن المعتمد على سواه ، وليست حياة المخلوق المستقل الذي يستطيع إذا ولد أن يجاهد في سبيل البقاء . .

إن الصلة التي تربطه بأمه يومئذ لا تكاد تنقطع حتى يموت . . إنه غير قادر على مواجهة جو الحياة القاسى ، ولا هو مسلح بأى سلاح لهذا الجهاد الشاق . .

إنما تبدأ فرص الحياة في الظهور أمام الماود الحديج - وهو الماود قبل الأوان - حين يكمل الشهر السابع من حياته الرحمية . . فإذا بلغ الشهر الثامن كانت هذه الفرص أقوى وأكبر . . إن كل يوم يضاف إلى العمر الرحى للجنين بعد الشهر السابع ، يزيد من فرص الحياة أمام الماود ، ويضيف إلى رصيد الأمل في حياته - إذا تساوت الظروف - ويسجل له نقطة في حساب البقاء .

مسألة وزن

مع ذلك فإن الماود الحديج حتى لو كان عمره سبعة أشهر أو ثمانية لا توجد لديه فرصة للبقاء إذا قل وزنه عن كيلو جرام واحد ، مقارناً بالكيلوجرامات الثلاثة والنصف التي يزنها الجنين المكتمل الحمل والصحة.

فإذا زاد وزنه على كيلو جرامين ونقص عن الثلاثة احتاج لكي يعيش إلى رعاية خاصة من الأم تحميه من عواذى الجو . ومن أخطاء التغذية ، ومن قذارة المحيط . . .
أما إذا كان بين بين ، فإن حياته تصبح مرهونة بالرعاية الطبية التي تتولاه بالعناية الدائمة .

هول القيامة

وأيًا كان الأمر فإن حكاية توائم باب الشعرية الثلاثة وتلوينها بهذه الصبغة الزائفة من أصباغ الأعاجيب ، قد صادفها سوء حظ كبير حين ولدت في زحمة الأحداث ، أحداث القلوب المزروعة من جانب ، وأحداث ضيافة الرئيس جونسون للخواجة أشكول من جانب آخر ، وقصة غرامهما العجيبة التي فاقت قصة غرام دليلة وشمشون .
لقد ولدت لسوء حظها ميتة .
وانطبق عليها قول شوقي :
من مات في هول القيامة لم يجد

قدماً تشيع أو حفاوة ساعى !

